سورة [والشمس]

دراسة تحليلية

دكتور

محمد سعيد مصطفى الغزال

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

المقدمة

[الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا]الكهف١، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمد عبده ورسوله.

وبعد

فإن أجل ما صرفت إليه العقول والقلوب والأفهام هو العناية بكتاب الله – تبارك وتعالى– قراءةً وحفظاً، وتدبراً وتفسيراً وفهماً، ومن أفضل العلوم العلم بالله – تبارك وتعالى– عن الله عز وجل، وقد أكرم الله– تبارك وتعالى – المؤمنين بالقرآن الكريم هدية الخالق إلى أصفيائه من خلقه، أنزله إليهم هادياً، ومنيراً : [كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ]إبراهيم ١، هذا الكتاب أنزله الله – تعالى– لإزالة الغشاوة عن عين خلقه :[كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ] ص ٢٩ .

– وقد فضل الله – تعالى– نبيه محمداً بأن أعطاه القرآن الكريم فيه المنهج الإلهي الخاتم، حتى إن النبي وهو يتحدث عن القرآن الكريم وما فيه أبان عن فيض كرم الله – تعالى – عليه بما ورد عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ، أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: " أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ " (١)، فكان ما فضل به النبي – صلى الله عليه

---

١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٨٨/٢٨ رقم ١٦٩٨١ ، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٤١هـ) المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م

وسلم – المفصل ومنه سورة [والشمس] وهذه السورة على قلة عدد كلماتها ووجازة لفظها إلا أنها حوت من معاني الإيمان الكثير، لذا فإن النبي – صلى الله عليه وسلم – كان حريصاً على تثبيت معانيها في نفوس المؤمنين منذ نزلت، فلا غرو حرص النبي –صلى الله عليه وسلم– على قراءتها بشكل دائم في العشاء الآخرة لما تحويه من معانٍ إيمانية قيمة .

– وقد كان من سابغ فضل الله – تعالى – علي أن من علي منذ نعومة أظفاري بمعايشة كتاب الله – تبارك وتعالى– ، وقد استخرت الله – تعالى في كتابة بحث في التفسر التحليلي لهذه السورة فشرح الله – تعالى – له صدري ؛ فشرعت في ذلك مستعيناً بالله – تعالى– على الإبحار في بحر القرآن الكريم لعل الله – تعالى– يجعله شافعاً لي في الآخرة، فوقع اختياري على هذه السورة الكريمة لما فيها من معانٍ دقيقة.

- <u>وقد جاء منهج البحث كما يلي :</u>
- قسمت البحث إلى مقدمة وفصلين وخاتمة، ثم فهرس جامع لموضوعات البحث.
- أما المقدمة فأذكر فيها أهمية الموضوع ومنهج وطريقة البحث .
- ومنهج البحث الذي اعتمدته في هذا البحث فهو البحث التحليلي كما يلي :
- <u>الفصل الأول</u> :قمت بالحديث عن السورة إجمالاً من حيث : (التعريف بها – بيان فضلها – الحديث عن نزولها وزمنه وسببه – بيان مناسبتها، وعلاقتها بما قبلها وما بعدها – تحدثت عن اسم السورة ولماذا سميت به – وذكرت ما ورد من أقول العلماء في بيان عدد آياتها)

- **<u>الفصل الثاني</u> : قمت بتقسيم السورة مقاطع متتابعة معنونة ؛ بحيث أتناول السورة مقطعاً مقطعاً آيةً آيةً من حيث:[شرح مفرداتها- توضيح معانى جملها- ما تهدف إليه تراكيبها من أسرار وأحكام - أوجه المناسبات بين الآيات والسور ؛ مستعيناً فى ذلك بالآيات القرآنية الأخرى ذات الصلة،مع عزو كل آية إلى سورتها – واستعنت أيضاً بسنة النبي – صلى الله عليه وسلم – وعزوت الأحاديث إلى مظانها].**
- **ثم أردفت البحث بمبحث حول الدروس المستفادة من السورة الكريمة.**
- **ثم جاءت الخاتمة التي أوضحت فيها أهم ماتوصلت إليه من نتائج.**

سورة والشمس [دراسة تحليلية]

وقد جاء البحث في فصلين كما يلي :

- الفصل الأول [التعريف بالسورة]
- الفصل الثاني الجزء التحليلي .

الفصل الأول :[التعريف بالسورة]

ويشمل :

- اسمها .
- آياتها، وعددها.
- نزولها، ومناسبتها، وعلاقتها بما قبلها وما بعدها.
- مقاصدها العامة، وفضلها .

اسم السورة : سميت هذه السورة بـ : "والشمس وضحاها" على ما ذكره البخاري في صحيحه ([1]) ؛ وقد سماها النبي- صلى الله عليه وسلم - بهذا الاسم في أكثر من حديث صحيح كما سيرد ؛ وقد أخذ معظم العلماء بهذا الاسم دون تسميتها بـ:[الشمس] فقط ؛ لئلا تلتبس بسورة التكوير إذا سميت الشمس فقط دون واو القسم ؛ وهناك كثير من المفسرين

١ - الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري ١٦٩/٦ المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

سماها بـ الشمس بدون الواو([1])، وسميت بذلك لأن الله – تعالى– افتتحها بالقسم بالشمس، وغيرها من المخلوقات.

آياتها وعددها: وآياتها خمس عشرة آية عند القرّاءِ، وعند المكّي ستَّ عشرة، والمختلف فيه آية:[فَعَقَرُوْهَا]، وكلماتها أَربع وخمسون كلمة، وحروفها مائتان ست وأَربعون حرفاً، وفواصل آياتها على الأَلِف ([2]).

١- انظر / نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٦٩/٢٢ تأليف المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ) الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة بدون تاريخ نشر، تفسير الطبري المسمى:جامع البيان عن تأويل آي القرآن ٤٣٤/٢٤ / محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي،الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٣٥٧/١٥، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز٥٢٢/١ المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ)، المحقق: محمد علي النجار الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ١٩٩٦م.

٢ - انظر/ البيان في عدّ آي القرآن ٢٧٥/١، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ) المحقق: غانم قدوري الحمد، الناشر: مركز المخطوطات والتراث – الكويت الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، الفرائد الحسان في عد آى القرآن ٧٣/١، عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي (المتوفى: ١٤٠٣هـ) الناشر: مكتبة الدار

نزولها، ومناسبتها:

كان نزول سورة [والشمس] في مكة بعد الهجرة الثانية للحبشة، وقبل رحلة الإسراء والمعراج، وَعُدَّتِ السَّادِسَةَ وَالْعِشْرِينَ فِي عَدَدِ نُزُولِ السُّوَرِ ؛ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْقَدْرِ، وَقَبْلَ سُورَةِ الْبُرُوجِ (١) ؛ وعليه فسورة "والشمس" مكية باتفاق العلماء (٢)، ومن أهم خصائص السور القرآنية التي تنزلت في تلك الفترة الزمنية ما يلي :

١- الاهتمام بترسيخ العقيدة بكل قواعدها ومشتملاتها من إيمان بالله واليوم الآخر، وضرورة أن يتحمل الإنسان جزاء اختياره في هذه الحياة.

٢- إطلاق نظر الإنسان في الكون من حوله ليتفكر فيما خلقه الله – تعالى ؛ ليكون ذلك دليله للإيمان بالله – تعالى والتصديق بنبوة النبي – صلى الله عليه وسلم.

بالمدينة المنورة، الطبعة: الأولى ١٤٠٤ هـ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٥٢٢/١

١ - انظر/ التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ٣٦٥/٣٠، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، تاريخ نزول القرآن ٢١١/١، محمد رأفت سعيد، الناشر: دار الوفاء - المنصورة، مصر، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢م

٢ - الإتقان في علوم القرآن ٤٢/١، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبوالفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م، وانظر روح المعاني ٣٥٧/١٥

٣- بيان عاقبة المصدقين بوجود الله – تعالى –والمتبعين لهدي الأنبياء، وبيان عاقبة المكذبين لوجود الله تعالى وبعثة الأنبياء.

٤- غرس اليقين في نفوس المؤمنين أنهم يستندون إلى القوة الكبرى في هذا الوجود وهي قوة الله الكبير المتعال ذي البطش الشديد، والأخذ الأليم .

٥- عرض قصص الأمم السابقة وما كان منها مع القضية الكبرى للوجود – قضية الإيمان – وبيان جزاء المصدقين، وعاقبة المكذبين.

<u>وأما علاقتها بما ورد قبلها وما ورد بعدها في ترتيب المصحف فيتضح كما يلي :</u>

بداية: من الضروري التعرف على أهمية علم مناسبة ذكر السورة مع ما ورد في المصحف قبلها وما ورد بعدها من السور القرآنية، وقاعدة الباب القيمة في معرفة هذا العلم هي :" أَنَّكَ تَنْظُرُ إِلَى الْغَرَضِ الَّذِي سِيقَتْ لَهُ السُّورَةُ وَتَنْظُرُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْغَرَضُ مِنَ الْمُقَدِّمَاتِ وَتَنْظُرُ إِلَى مَرَاتِبِ تِلْكَ الْمُقَدِّمَاتِ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ مِنَ الْمَطْلُوبِ وَتَنْظُرُ عِنْدَ انْجِرَارِ الْكَلَامِ فِي الْمُقَدِّمَاتِ إِلَى مَا يَسْتَتْبِعُهُ مِنَ اسْتِشْرَافِ نَفْسِ السَّامِعِ إِلَى الْأَحْكَامِ أو اللوازم التَّابِعَةِ لَهُ الَّتِي تَقْتَضِي الْبَلَاغَةُ شِفَاءَ الْغَلِيلِ بِدَفْعِ عَنَاءِ الِاسْتِشْرَافِ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَيْهَا"(١)، وقد عد الإمام الفخر الرازي رحمه

---

١ - انظر / نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٩/١، المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الإتقان في علوم القرآن ٣٧٦/٣، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م،

الله – تعالى – هذا العلم هو الدليل على إعجاز القرآن فقال:" وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي لَطَائِفِ نَظْمِ هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي بَدَائِعِ تَرْتِيبِهَا عَلِمَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَمَا أَنَّهُ مُعْجِزٌ بِحَسَبِ فَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ وَشَرَفِ مَعَانِيهِ، فَهُوَ أَيْضًا مُعْجِزٌ بِحَسَبِ تَرْتِيبِهِ وَنَظْمِ آيَاتِهِ وَلَعَلَّ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ مُعْجِزٌ بِحَسَبِ أُسْلُوبِهِ أَرَادُوا ذَلِكَ"(١).

– وبالنظر لسورة " والشمس وضحاها " نجد أنها واقعة بين سورتين مكيتين في ترتيب المصحف وهما : سورة " البلد" التي تسبقها في الترتيب، وسورة " والليل" التي تتبعها ترتيباً، وبالتدقيق نجد أن هناك تناسباً رائعاً بين السور الثلاثة ومقاصدها، ففي كل منها تفصيل لبعض القضايا المجملة في السورتين الأخريين، كما أن فيها إجمالاً لبعض ما تم تفصيله في السورتين الأخريين ؛ على ما يلي تفصيله :

– الافتتاحية لكل سورة : افتتحت السور الثلاثة بالقسم، في سورة البلد القسم بالبلد الحرام " المكان" ومن فيه، وفي سورة الشمس جاء القسم بالزمان ومستتبعاته، وفي سورة الليل جاء القسم على الزمان ومشتملاته ؛ فكان ترتيباً رائعاً في الانتقال من سورة لما بعدها.

– كذلك الانتقال من سورة البلد في القسم من المكان وهو البلد الحرام للحديث عن الشمس وضحاها، ثم في سورة الليل الحديث عن الليل ومشتملاته، وهو انتقال بديع في بابه على ترتيبٍ من لدن من أحكم الكتاب وأعظم سبكه.

---

١ - مفاتيح الغيب :التفسير الكبير ١٠٦/٧، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ

- المقسم عليه في سورة البلد هو عيش الإنسان في نكد ومشقة ومكابدة [لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ]البلد/٤، ثم الحديث في نفس السورة عن إتاحة الاختيار للإنسان بين طريقي الحق والضلال[وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ]البلد ١٠، وفي سورة الشمس جاء المقسم عليه فلاح من تزكى، وخيبة من اختار طريق الشقوة:[قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا] والشمس ٩، ١٠، وفي سورة الليل جاء القسم على افتراق سعي بني البشر وأنهم لا يسلكون طريقاً واحدةً بل طرقهم متنوعة بتنوع أفرادهم:[إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى]الليل ٣، وهو قسم قريبُ من بعضه ؛ فيكاد يكون المقسم عليه في السور الثلاثة هو قضية واحدة محورية، وهي اختلاف سعي البشر عن بعضهم البعض، ففي حين يسعى بعضهم لإرضاء الله فيفلح، يسعى الآخرون لإرضاء شهواتهم فيخيبوا.

- قضية الهداية والتوفيق إليها تحدثت عنها السور الثلاث حديثاً متكاملاً متناسقاً مع بعضه البعض يلخص قصة هذه القضية التي حار في أمرها الناس ؛ فالهداية والتوفيق إليها منحة الله – تعالى – لمن أراد هدايته، ولمن سلك أسبابها، ففي سورة البلد:[وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ]البلد ١٠، وفي سورة والشمس الهداية والتقوى من إلهام الله – تعالى – لمن أراد تقواه:[فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا]الشمس ٨،وفي سورة الليل:[إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى]الليل١٢.

- أنماط البشر أمام منهج الله – تعالى- في الدنيا في السور الثلاث جاءت متناسقة، ففي سورة البلد قسم الناس أمام الهداية قسمين اثنين :المؤمنين – الكافرين [الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ] البلد١٧، ١٨، ١٩، وفي سورة الشمس أيضاً قسم الناس أمام الهداية

قسمين:[قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا]الشمس ٩، ١٠، وفي سورة الليل – أيضاً – الناس أمام الهداية قسمين لا ثالث لهما وهما :[مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى]الليل ٥، ٦ والصنف الآخر:[مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى]الليل ٨، ٩.

– قضية تزكية التقوى أو إخفاؤها أجملت في موضع من السور الثلاث، وفصلت في السورتين الأخريين ؛ ففي الشمس جاء الحديث مجملاً بفلاح من زكى التقوى في نفسه، وخيبة وخسار من أخفاها بإظهار الفجور عليها بقوله تعالى: [قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا] الشمس ٩،١٠ هكذا بإجمال، وفي السورتين الأخريين بيان تفصيل ذلك، ففي تفصيل أفعال الفلاح ورد تعديدها في سورتي البلد والليل، ففي البلد بعض الأفعال التي تورد الفلاح وهي: [فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ] البلد من ١٣ : ١٧ وفي سورة الليل تفصيل أفعال الفلاح بأنها :[مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى] الليل ٥،٦، و[الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى]الليل ١٨: ٢٠، وفي بيان الأفعال التي تخيّب النفس ورد التفصيل في سورة البلد بقوله تعالى:[أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ]البلد من ٥:٧، وفي سورة الليل ورد تفصيل أفعال الخيبة بأنها: [مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى]الليل من ٨: ١٠،و [الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى]الليل ١٦

– *<u>مصير الناس في الآخرة تبعٌ لما اختاروه في الدنيا</u>* أيضاً هذا المحور متكامل على التفصيل في السور الثلاث : ففي البلد الفريق الأول

: [أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ] البلد ١٨، والفريق الآخر:[هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ] البلد ١٩، وفي سورة والشمس:[قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا]الشمس ٩، ١٠، وفي سورة الليل:[فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى] الليل ٧[وَلَسَوْفَ يَرْضَى] الليل ٢١، والصنف الآخر هو : [فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى]الليل ١٠ وجزاؤه : [نَارًا تَلَظَّى] الليل ١٤.

- ***الخاتمة*** في كل سورة متسقة مع السورتين الأخريين ؛ فلما ختم الله – تعالى – سورة البلد ببيان مصير المشركين في الآخرة بقوله – تعالى:[وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ] البلد ١٩، ٢٠، وفصل هذه النار في سورة الليل بقوله – تعالى:[فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى]الليل ١٤ أبان في الشمس أن العذاب ليس أخروياً فحسب بل في الدنيا والآخرة، فقد يعجله الله – تعالى – في الدنيا كما فعل بثمود التي كذبت وعتت وعقرت ناقة الله فكان جزاؤهم انتقاماً عاجلاً في الدنيا ثم في الآخرة عذاب عظيم ينتظرهم ؛ بقوله:[كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا] الشمس ١١ : ١٤.

- لكل ما سبق فقد اتفق العلماء على تناسب تسلسل السور الثلاث وكأنها تأخذ بعناق بعض، وتتكامل مع بعضها لتعالج الموضوعات الأساسية فيما بينها بأساليب متنوعة تزيد المؤمن اشتياقاً وسعادة بترادها دائماً ؛ قال الألوسي–رحمه الله تعالى–"ولما ختم سبحانه السورة المتقدمة– يعني البلد– بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة أعاد – جل شأنه – في هذه السورة الفريقين على سبيل الفذلكة بقوله – سبحانه:[قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها] الشمس: ٩،١٠ وفي

هذه:[فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها]الشمس: ٨، وهو كالبيان لقوله – تعالى– في الأولى:[وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ]البلد: ١٠ على أولى التفسيرين وختم – سبحانه الأولى– بشيء من أحوال الكفرة في الآخرة، وختم – جل وعز– هذه بشيء من أحوالهم في الدنيا"([١]).

مقاصدها العامة، وفضلها: سورة الشمس من السور المكية كما سبق بيانه، والسور المكية في عمومها تهتم بترسيخ العقيدة وقواعدها في نفس المسلم، وبيان قيمة التصديق بالرسالة، وجزاء العمل الصالح في الدنيا والآخرة، وعاقبة التكذيب وعاقبة الإيمان، وقد جاءت مقاصد سورة [والشمس] على سنن القرآن المكي فأكدت على قضايا مهمة تمثلت فيما يلي :

١- النفس البشرية مناط التكليف، ومحل الفلاح أو الخيبة، وأن التوفيق للهداية أو الخذلان فيها هو فعل الله – تعالى.

٢- قصة إهلاك ثمود ؛ كنموذج من نماذج الخيبة والتكذيب، وكيف أخذها الله – تعالى – بعدم قيامها بتزكية نفسها وفق المنهج الإلهي.

وأما فضلها فيتضح كما يلي :

القرآن الكريم كله أنزل من لدن حكيم خبير، وكله على درجة عالية في الفضل بيد أن بعض الآيات قد يرد فيها من الآثار مالا يرد في

---

١ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٣٥٧/١٥، وانظر / أسرار ترتيب القرآن ١٦٠ المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٧٠/٢٢ المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

غيرها، تدليلاً على مزيد فضلٍ لها دون انتقاصٍ لغيرها، وقد وردت آثارٌ صحيحة لبيان مزيد فضل لسورة [والشمس] كما يلي :

١- أنها من المفصل الذي فُضل به النبي – صلى الله عليه وسلم – على سائر الأنبياء ؛ ففي المسند عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ، أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ:" أُعْطِيتُ مَكَانَ التَّوْرَاةِ السَّبْعَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الزَّبُورِ الْمَئِينَ، وَأُعْطِيتُ مَكَانَ الْإِنْجِيلِ الْمَثَانِيَ، وَفُضِّلْتُ بِالْمُفَصَّلِ "(١) والمراد بالسبع الطوال على رأي الجمهور هي السور من البقرة حتى التوبة والأنفال، والمئين هي ما كان على مئة آية أو يزيد، والمفصل هو السور من الحجرات إلى آخر القرآن سورة الناس، والمثاني ما عدا ذلك (٢).

٢- كثرة قراءة النبي – صلى الله عليه وسلم – لها يدلل على أهميتها في بناء تصورات المسلم في القضية المركزية في حياة الإنسان (قضية الهداية) ؛ ففي الحديث عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَ

---

١ - مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٨٨/٢٨ رقم ١٦٩٨١ المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) ، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، وقال المحقق تعليقاً على الحديث : إسناده **حسن**، عمران بن القطَّان- وهو ابن داوَر- حسنُ الحديث، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين غير أبي داود الطيالسي، فمن رجال مسلم، وأخرج له البخاري تعليقاً.

٢ - الكتاب: البرهان في علوم القرآن ٢٤٥/١ المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه

رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقْرَأُ فِي العِشَاءِ الآخِرَةِ بِالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَنَحْوِهَا مِنَ السُّوَرِ ([1]).

٣- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا مَرَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ :[وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا] الشمس ٨ وَقَفَ، ثُمَّ قَالَ: « اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا وَخَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا »([2]).

٤- ثبت أن النبي – صلى الله عليه وسلم –كان يأمر صحابته أن يصلوا بها ؛ فعن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ يُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمَهُ فَيُصَلِّي بِهِمُ الصَّلاَةَ، فَقَرَأَ بِهِمُ البَقَرَةَ، قَالَ: فَتَجَوَّزَ رَجُلٌ فَصَلَّى صَلاَةً خَفِيفَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاذًا، فَقَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا قَوْمٌ نَعْمَلُ بِأَيْدِينَا، وَنَسْقِي بِنَوَاضِحِنَا، وَإِنَّ مُعَاذًا صَلَّى بِنَا البَارِحَةَ، فَقَرَأَ البَقَرَةَ، فَتَجَوَّزْتُ، فَزَعَمَ أَنِّي مُنَافِقٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ

١ - سنن الترمذي ١١٤/٢ حديث رقم ٣٠٩ المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق:أحمد محمد شاكر، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

٢ - المعجم الكبير ١٠٦/١١ المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية

– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ – ثَلَاثًا –اقْرَأْ:[وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا]و [سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى]وَنَحْوَهَا "([1]).

٥– و عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ– رَضِيَ اللهُ عَنْهُما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَرَهُ أَنْ يَقْرَأَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ بِـ:[وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى] و[وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا]([2]).

القراءات القرآنية الواردة في السورة :

– أولاً: اختلف القراء في قراءة السورة على مذاهب ثلاثة بالنسبة للأصول كما يلي :

١– قرأ ابن كثير، وابن عامر وعاصم [وَضُحَاهَا]، بالفتح، وكذلك تلاها إلى آخر السورة.

٢– وقرأ حمزة والكسائي السورة كلها بالإمالة (الإضجاع).

٣– وقرأ عن ورش نافع، وأبو عمرو بين ذلك – يعني التقليل.

– ثانياً: بالنسبة لقوله – تعالى:[وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا] الشمس١٥، اختلفوا فيه على مذهبين كما يلي:

١– قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر والأعرج وأبي بن كعب: [فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا] بالفاء وكذلك في مصاحف أهل المدينة والشام.

٢– وقرأ الباقون – ابن كثير وأبو عمرو، وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب–:[وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا] بالواو وكذلك هي في مصاحفهم ([3])، وفي

---

١ ـ صحيح البخاري ٢٦/٨ حديث رقم ٦١٠٦

٢ ـ المعجم الكبير للطبراني ١٣٤/١١ رقم ١١٢٧٦

٣ ـ انظر / تفسير الطبري ٤٥٣/٢٤، مفاتيح الغيب ١٧٣/٣١، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٤٨٩/٥،أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)،

توجيه ذلك قال العلماء :" فالفاءُ تقتضي التعقيبَ، وهو ظاهرٌ، والواوُ يجوزُ أَنْ تكونَ للحالِ، وأنْ تكونَ لاستئنافِ الأخبارِ، وضميرُ الفاعل في "يَخاف"يحتملُ:

الأول : عَوْدُه على الرَّبِّ، وهو الأظهرُ، لكونِه أقربَ مذكورٍ.

والثاني: أنه يعودُ على رسولِ الله، أي: ولا يخاف عقبى هذه العقوبةِ لإنذاره إياهم.

والثالث: أنه يعودُ على «أشقاها» أي: انبعَثَ لعَقْرها، والحالُ أنه غيرُ خائفٍ عاقبةَ هذه الفَعْلَةِ الشنعاءِ، وعقبى الشيء خاتمتُه ([1]).

المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـبحر العلوم ٥٨٥/٣، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ)،

١ - الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٢٥/١١ المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم لمعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق، وانظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٤٨٩/٥ .

الفصل الثاني

التفسير التحليلي للسورة

وقد جاءت السورة في مقطعين أساسيين

المقطع الأول : النفس البشرية محل الفلاح أو الخيبة، الآيات من ١: ١٠

المقطع الثاني : نموذج واقعي لمن خاب وخسر فأذاقه الله – تعالى– وبال أمره في الدنيا قبل الآخرة، الآيات من ١١: ١٥

المقطع الأول : النفس البشرية محل الفلاح أو الخيبة ؛ الآيات من ١: ١٠

[وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا]الشمس من ١: ١٠

–المعنى الإجمالي للآيات :

يقسم الله – تبارك وتعالى– بذاته وبالمخلوقات العظيمة المذكورة في الآيات على قضية خطيرة تمثل ركيزةً هامةً في تصورات الإنسان، وهي فلاح ونجاح من زكى نفسه، وخيبة وخسار من أوردها موارد الهلاك، في تفصيل على ما يلي :

–قوله تعالى : [وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا] الشمس ١

قسم من الله – تبارك وتعالى – بالشمس وضحاها " وَالْقَسَمُ لِتَأْكِيدِ الْخَبَرِ، وَالْمَقْصُودُ بِالتَّأْكِيدِ هُوَ مَا فِي سَوْقِ الْخَبَرِ مِنَ التَّعْرِيضِ بِالتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ بِالِاسْتِئْصَالِ، وَالْوَاوَاتُ الْوَاقِعَةُ بَعْدَ الْفَوَاصِلِ وَاوَاتُ قَسَمٍ، وَكُلٌّ مِنَ

الشَّمْسِ، وَالْقَمَرِ وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَنَفْسِ الْإِنْسَانِ، مِنْ أَعْظَمِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ ذَاتًا وَمَعْنًى الدَّالَّةِ عَلَى بَدِيعِ حِكْمَتِهِ وَقَوِيِّ قُدْرَتِهِ.

وَكَذَلِكَ كُلٌّ مِنَ الضُّحَى، وَتُلُوِّ الْقَمَرِ الشَّمْسَ، وَالنَّهَارِ، وَاللَّيْلِ مِنْ أَدَقِّ النِّظَامِ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ – تَعَالَى، وَمَهَّدَ لِذَلِكَ بِالتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّ تَزْكِيَةَ النَّفْسِ سَبَبُ الْفَلَاحِ، وَأَنَّ التَّقْصِيرَ فِي إِصْلَاحِهَا سَبَبُ الْفُجُورِ وَالْخُسْرَانِ(١).

والسبب في تخصيص هذه المخلوقات دون غيرها للقسم بها في هذه المواضع الدلالة على عظمتها، ولأجل أن يتأملها الإنسان فيقبل على ربه – تبارك وتعالى– شاكراً إياه على عظيم نعمه ؛ لأن الذي يقسم به الله –تبارك وتعالى– يحصل له وقع في القلب، فتكون دواعي تأمله أقوى.

كما أن القسم بهذه الأمور العظيم جاء للدلالة على عظمة ومحورية القضية التي يقسم عليها في حياة الإنسان كمحورية الأمور العظيمة التي أقسم الله بها، والتي بدونها يختل النظام الكوني .

والشمس: هي ذلك النجم العظيم الذي خلقه الله – تعالى– ورتب عليه أسباب انتظام الحياة على كوكب الأرض، وقد – ورد ذكرها في القرآن الكريم في ما يقرب من عشرين موضعاً كلها تتحدث عن تسخير الله – تعالى– إياها لصالح الإنسان من ذلك قوله تعالى : [هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ]يونس ٥، وقوله تعالى : [وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ

١ - التحرير والتنوير ٣٠/٣٦٥، مفاتيح الغيب ٣١/١٧٣

لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ] الرعد ٢،وقوله: [وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ]إبراهيم ٣٣.

– وفي بيان دلالتها على عظمة الخالق وتسليم الجميع بأن الله تعالى هو خالقها يقول تعالى : [وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ]العنكبوت ٦١، وفي بيان دلالتها على النظام الكوني الهائل الذي ضبط الله – تبارك وتعالى – الكون به يقول تعالى:[الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ] الرحمن ٥ .

– ولعظمة خلقها ودقة انتظامها افتتح الله تعالى السورة بالقسم بها، وسمى النبي – صلى الله عليه وسلم – السورة بها، إن الشمس ليست هي أكبر ما في السماء من أجرام، فهنالك في هذا الفضاء الذي لا يعرف البشر له حدوداً، ملايين الملايين من النجوم، منها الكثير أكبر من الشمس وأشد حرارة وضوءاً ؛ فالشعرى اليمانية أثقل من الشمس بعشرين مرة، ونورها يعادل خمسين ضعف نور الشمس، والسماك الرامح حجمه ثمانون ضعف حجم الشمس ونوره ثمانية آلاف ضعف، وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة ... وهكذا ... ولكن الشمس هي أهم نجم بالنسبة لنا– نحن سكان الكوكب الأرضي الصغير، الذي يعيش هو وسكانه جميعاً على ضوء الشمس وحرارتها وجاذبيتها.

– وكذلك القمر وهو تابع صغير للأرض، ولكنه ذو أثر قوي في حياتها، وهو العامل الأهم في حركة الجزر والمد في البحار، وحجم الشمس، ودرجة حرارتها، وبعدها عنا، وسيرها في فلكها، وكذلك حجم القمر وبعده ودورته..كلها محسوبة حساباً كامل الدقة بالقياس إلى آثارهما في حياة الأرض، وبالقياس إلى وضعهما في الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى..

ونتناول طرفاً من الحساب الدقيق في علاقتهما بكوكبنا الأرضي وما عليه من حياة وأحياء.

- إن الشمس تبعد عن الأرض باثنين وتسعين ونصف مليون من الأميال[أي ما يوازي ١٥٠ مليون كيلومتر تقريباً]، ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاحترقت الأرض أو انصهرت أو استحالت بخاراً يتصاعد في الفضاء! ولو كانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ما على الأرض من حياة! والذي يصل إلينا من حرارة الشمس لا يتجاوز جزءاً من مليوني جزء من حرارتها، وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا، ولو كانت الشعرى بضخامتها وإشعاعها هي التي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية، وذهبت بدداً! وكذلك القمر في حجمه وبعده عن الأرض، فلو كان أكبر من هذا لكان المد الذي يحدثه في بحار الأرض كافياً لغمرها بطوفان يعم كل ما عليها، وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذي لا يخطئ مقدار شعرة! وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في توازن وضعها، وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب، الذي تجري فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة عشرين ألف ميل في الساعة في اتجاه واحد .... ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين! وفي هذا الفضاء الشاسع الرهيب لا يختل مدار نجم بمقدار شعرة، ولا يختل حساب التوازن والتناسق في حجم ولا حركة ([١]) .

---

١ - انظر في ظلال القرآن ٣٤٤٨/٦، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ)، الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ

وأما قوله تعالى:[وَضُحَاهَا] فهو ضحى الشمس، أي وقت طلوعها من الصباح قبل أن تستعر حرارتها في الظهيرة، وقد اختلف العلماء في المراد به على أَقْوَالٍ:

- **قَالَ قَتَادَةُ: هُوَ النَّهَارُ كُلُّهُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ الْفَرَّاءِ وَابْنِ قُتَيْبَةَ.**
- **وقَالَ مُجَاهِدٌ وَالْكَلْبِيُّ: ضَوْؤُهَا.**
- **وقيل: الضِّحُّ نَقِيضُ الظِّلِّ وَهُوَ نُورُ الشَّمْسِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَأَصْلُهُ الضُّحَى، فَاسْتَثْقَلُوا الْيَاءَ مَعَ سُكُونِ الْحَاءِ فَقَلَبُوهَا وَقَالَ: ضَحٌّ، فَالضُّحَى هُوَ ضَوْءُ الشَّمْسِ وَنُورُهَا ثُمَّ سُمِّيَ بِهِ الْوَقْتُ الَّذِي تُشْرِقُ فِيهِ الشَّمْسُ.**
- **وَقَالَ مُقَاتِلٌ: هُوَ حَرُّ الشَّمْسِ، وَتَقْرِيرُ ذَلِكَ بِحَسَبِ اللُّغَةِ أَنْ نَقُولَ: الضَّحْوُ ارْتِفَاعُ النَّهَارِ، وَالضُّحَى فُوَيْقَ ذَلِكَ، وَالضَّحَاءُ مَمْدُودًا امْتَدَّ النَّهَارُ، وَقَرُبَ أَنْ يَنْتَصِفَ ([1]).**
- **وقد أخذ المفسرون ينتصر كل منهم لما ذهب إليه فريق من أصحاب الأقوال السابقة، وبالتحقيق في الباب للاقتراب من الوقوف على**

---

١ - تفسير الطبري ٤٣٣/٢٤ :٤٣٤، تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ٣٩٨/٨، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ، زاد المسير في علم التفسير ٤٥٣/٤ المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ

مراد الآية الشريفة نجد أن القرآن الكريم قد استخدم المادة اللغوية لكلمة وضحاها في غير ما موضع من القرآن الكريم، والتي يتبين منها ما يلي :

- الموضع الأول قوله- تعالى:[أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ]الأعراف ٩٨، وقد فسرها العلماء بقولهم : "ضُحًى أي ضحوة النهار وهو في الأصل ارتفاع الشمس أو شروقها وقت ارتفاعها"(١).

- والموضع الأول من سورة طه وهو قوله تعالى : [قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى]طه ٥٩ هو الظرف الزماني الذي واعد فيه نبي الله موسى فرعون وجنده للقيا؛ قال أبو حيان :" وَانْتَصَبَ ضُحًى عَلَى الظَّرْفِ وَهُوَ ارْتِفَاعُ النَّهَارِ، وَيُؤَنَّثُ وَيُذَكَّرُ وَالضَّحَاءُ بِفَتْحِ الضَّادِ مَمْدُودٌ مُذَكَّرٌ وَهُوَ عِنْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ الْأَعْلَى"(٢) وهذا يفيد أن ذلك غالباً ما يكون في وقت الصباح قبل أن ينتصف النهار ؛ إذ هو الوقت المختار لمثل تلك المباريات التي يلتقي فيها الناس، وهو الوقت الذي تكون فيه النفوس مهيأةً بشوق لمتابعة تلك الأحداث.

- والموضع الثاني من سورة طه وهو في تحذير أبي البشر آدم من الانصراف إلى ما حذره الله – تعالى – منه في صيغةٍ ترهيبية بقوله تعالى:[وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى] طه ١١٩، وَلَا تَضْحَى أَيْ: لَا تَصِيرُ بَارِزًا لِلشَّمْسِ، لَيْسَ لَكَ مَا تَسْتَكِنُّ فِيهِ مِنْ حَرِّهَا ؛ تَقُولُ

---

١ - روح المعاني ١٣/٥

٢ - البحر المحيط في التفسير ٣٤٨/٧،المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ

الْعَرَبُ:ضَحِيَ يَضْحَى، كَرَضِيَ يَرْضَى،وَضَحَى يَضْحَى كَسَعَى يَسْعَى إِذَا كَانَ بَارِزًا لِحَرِّ الشَّمْسِ لَيْسَ لَهُ مَا يَكِنُّهُ مِنْها ([1])، وعليه فهذا الموضع يفيد أن التحذير هو من الوقت الذي ترتفع فيه الشمس في كبد السماء فتمثل خطراً على من يتعرض لها ؛ بناءً على النفي المتقدم من تعرض آدم لحر الشمس وبروزه لها.

- لذا يمكن القول أن قوله – تعالى :[وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا]والشمس ١ المراد بـ [وَضُحَاهَا] ههنا هو وقت الضحى حين تطلع الشمس فيصفو ضوؤها في أول النهار ويمتد إلى ما قبل وقت الزوال استناداً للقرائن القرآنية السابقة، وكذلك القسم من الله – تعالى – لا يكون إلا على أمر عظيم، وقد تواردت الأدلة النبوية التي تفيد عظمة هذا الوقت حتى سن النبي – صلى الله عليه وسلم – عبادةً خاصة بهذا الوقت لمن أراد أن يشكر الله – تعالى– على نعمه فكانت صلاة الضحى في هذا الوقت العظيم ؛ ففي الحديث الصحيح عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ– صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»([2])، قالوا : ومعروف أن الضُّحَى اسْمٌ لِأَوَّلِ النَّهَارِ

---

١ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ١٠٧/٤ المؤلف : محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ) الناشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان عام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ

٢ - حديث صحيح رواه الإمام مسلم في صحيحه المسمى المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ ١/ ٤٩٨ برقم ٧٢٠،

وَأُضِيفَتْ هَذِهِ الصَّلَاةُ لِذَلِكَ الْوَقْتِ لِأَنَّهُ وَقْتُهَا ؛ فَوَقْتُ صَلَاةِ الضُّحَى النِّصْفُ الْأَوَّلُ مِنْ النَّهَارِ([1]).

- وقد يكون القسم في هذه الآية وما بعده ليس على كل مفردةٍ على حدة، أي ليس قسماً بالشمس ثم قسم بضحاها بل قد يكون القسم على الحالة الناتجة من التأمل في الشمس مع ضحاها، خاصة أن وقت الضحى كما قال العلماء – حديثاً- فيه من الفوائد الصحية والفوائد الطبيعية التي يحتاجها الكون كله الكثير، فقد يكون القسم بالحالة التي تنتج ساعة الشمس في الضحى.

- قوله تعالى : [وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا]:

- أي والقمر إذا تابع الشمس، وأصل القمر هو ذلك الجرم المعروف في السماء، ويَكُونُ فِي اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ الشَّهْرِ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ القُمْرة، وَالْجَمْعُ أَقْمار، وأَقْمَرَ: صَارَ قَمَراً، ولشدة ارتباط القمر بالشمس أطلقوا

مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

١ - انظر / طرح التثريب في شرح التقريب (المقصود بالتقريب: تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد) ٧٢/٣ المؤلف: أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: ٨٠٦هـ)، أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي (المتوفى: ٨٢٦هـ)، الناشر: الطبعة المصرية القديمة - وصورتها دور عدة منها (دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي)

عليهما "القَمَرانِ"وهما: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، والقَمْراءُ: ضَوْءُ القَمَرِ، وَلَيْلَةٌ مُقْمِرَةٌ وَلَيْلَةٌ قَمْرَاءُ مُقْمِرَةٌ ([1]).

- وقد ذُكر القمر في القرآن الكريم فيما يزيد عن الخمسة وعشرين موضعاً كلها أو معظمها – على الأقل – مقترن بالحديث عن الشمس، وذلك أن الشمس والقمر وانتظامهما في الحركة والتتابع خير دليل على انتظام حركة الكون، واتساقها:[وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ]يس ٣٨: ٤٠ .

- وورود القسم بالقمر في القرآن الكريم في أكثر من موضعٍ دليل على عظمة خلق هذا الجِرم ؛ قال الله- تعالى:[كَلَّا وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ] المدثر ٣٢ : ٣٨، وقوله تعالى:[فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ] الانشقاق ١٦: ١٩ .

- ووجه تلوّ ومتابعة القمرِ للشمس احتياجه إليها في انضباط سيره، والقيام بوظيفته التي لأجلها وجد، وقد ظهر ذلك بما كشفه العلم الحديث من شدة الارتباط بين الأجرام السماوية المختلفة، وعلى رأسها علاقة الشمس بالقمر، فهو ينجذب إليها وفق معادلةٍ دقيقةٍ في الحركة، كما أنه

---

١ - انظر لسان العرب ١١٣/٥، المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ

يحتاج إليها ليستمد نوره منها ؛ ولعل هذا وجه الإعجاز القرآني في كثرة اقترانهما معاً:[وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ] الأنعام ٩٦،[وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ] الأنبياء ٣٣ ،[وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ] يس ٣٧: ٤٠.

- وفي حديث القرآن عن علاقة تلك الأجرام ببعضها وانتظام سيرها وفق نظام كوني مبدع ختم الآيات التي تتحدث عن الشمس والقمر وعلاقتهما باسم الله – تعالى [العزيز العليم] إشارةً إلى أن هذا النظام المحكم والبديع في صناعته وتقديره وترتيب سيره إنما هو فعل العزيز الغالب والمدبر لكل أمر، وأن خلق هذه الأفلاك وتقدير نظامها هو فرع عن صفة العزة والعلم الشامل لله – تبارك وتعالى– قال الشيخ ابن عاشور:" وَذِكْرُ صِفَتِي الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ لِمُنَاسَبَةِ مَعْنَاهُمَا لِلتَّعَلُّقِ بِنِظَامِ سَيْرِ الْكَوَاكِبِ، فَالْعِزَّةُ تُنَاسِبُ تَسْخِيرَ هَذَا الْكَوْكَبِ الْعَظِيمِ، وَالْعِلْمُ يُنَاسِبُ النِّظَامَ الْبَدِيعَ الدَّقِيقَ"(١)، ويكشف عن إبداع العليم تبارك وتعالى – أسراراً علميةً في نظام هذه الأفلاك، وهو ما بدأت البشرية تكشف جزأً يسيراً من أسرار علمه في خلق السماوات والأرض والنظام الكوني الذي تسير عليه تلك الأجرام ؛ إعمالاً لمنهجية قرآنية تحدث عنها خالق تلك الأفلاك، منزل هذا القرآن بقوله– تعالى:[سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى

١ - التحرير والتنوير ٢١/٢٣

يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ] فصلت ٥٣ .

- قوله تعالى : [وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا]:

- أي : والنهار إذا ظهر فأوضح كل خفاء، وأظهر جلاء كل مخلوق يطاله، وهو جزء من القسم المركب بمجموعة عظيمة من مخلوقات الله – تعالى، التي افتتحها بالقسم بالشمس وضحاها، وأصل النهار هو الوقتُ الذى يَنْتَشِر فيه الضوءُ ؛ وهو فى الشَّرْع: ما بين طُلُوعِ الفَجْر إلى غُروب الشمِس، ويأتي في القرآن الكريم مفرداً دائماً، ويقابله الليل، والبيات ؛ قال تعالى : [وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا] الفرقان ٦٢، وقال:[قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ] يونس ٥٠، وقد يجمع وإن لم يَرِد جمعه، فإذا جمعته جمع قلة قلت أنهر، وإن جمعته جمع كثرة قلت نُهُر ([1]).

- ورد لفظ النهار في القرآن الكريم في أكثر من أربعين موضعاً مفرداً أو معطوفاً على مقابله – الليل –كما قال تعالى: [تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ] آل عمران ٢٧ وكما قال :[وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا

١ - أنظر بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١٢٨/٥، المخصص ٣٩٢/٢ أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ) المحقق: خليل إبراهم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م

زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ]الرعد ٣ .

- وأما قوله تعالى [جَلَّاهَا] أي أظهرها وبينها وأوضحها، والضمير في الفعل اختلف المفسرون في عوده، فمنهم من ذهب إلى عوده على الشمس باعتبارها أقرب مذكور وهو رأي جمهور المفسرين وهو الأقرب للمعهود من كلام العرب ؛ لأنه لا يحتاج لتأويل، وعليه فمعنى تجلية النهار للشمس أي إبانتها واضحة وقت ظهورها، وَإِسْنَادُ التَّجْلِيَةِ إِلَى النَّهَارِ مَجَازٌ عَقْلِيٌّ وَالْقَسَمُ إِنَّمَا هُوَ بِالنَّهَارِ لِأَنَّهُ حَالَةٌ دَالَّةٌ عَلَى دَقِيقِ نِظَامِ الْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ، وَقُيِّدَ الْقَسَمُ بِالنَّهَارِ بِقَيْدِ وَقْتِ التَّجْلِيَةِ إِدْمَاجًا لِلْمِنَّةِ فِي الْقَسَمِ(١).

- وقيل بل يعود على الأرض أو على الظلمة أو على الدنيا، واحتج من ذهب لذلك بجوازه في كلام العرب ؛ كقوله تعالى: [حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ]ص ٣٢ أي الشمس إذ هي التي تتوارى؛ قالوا: إِنَّمَا جَازَ الْكِنَايَةُ عَنْهَا وَلَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ قَبْلُ لِأَنَّ مَعْنَاهَا مَعْرُوفٌ،كَمَا يُعْرَفُ مَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ: أَصْبَحَتْ بَارِدَةً، وَأَمْسَتْ بَارِدَةً، وَهَبَّتْ شَمَالًا، فَكَنَّى عَنْ مُؤَنَّثَاتٍ لَمْ يَجْرِ لَهَا ذِكْرٌ، إِذْ كَانَ مَعْرُوفًا مَعْنَاهُنَّ(٢)، والأولى حمله على رأي الجمهور لأن ذلك هو الظاهر، وإعمال القاعدة العربية بأن ما لا يحتاج إلى تأويل أولى مما يحتاج للتأويل والتقدير.

- قوله تعالى : [وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا] والشمس٤

١ - التحرير والتنوير ٣٦٨/٣٠

٢ - انظر / الطبري ٤٣٦/٢٤، تفسير القرطبي ٧٤/٢٠،

أي والليل حين يغطي الشمس، ويسترها ويخفيها ؛ فإن حقيقة التغشية التغطية، يقال : (غَشَى) الْغَيْنُ وَالشِّينُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَغْطِيَةِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، يُقَالُ غَشَّيْتُ الشَّيْءَ أُغَشِّيهِ،وَالْغِشَاءُ: الْغِطَاءُ، وَالْغَاشِيَةُ: الْقِيَامَةُ، لِأَنَّهَا تَغْشَى الْخَلْقَ بِأَفْزَاعِهَا(١)، وقد ورد في القرآن الكريم قوله – تعالى:[وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ]البقرة ٧ فمعنى الغشاوة الغطاء، وكذلك ورد قوله – تعالى:[إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا] الرعد ٥٤، وقوله:[وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ] الرعد ٣ أي جعل كلاً منهما ماحياً لأثر الآخر وكأنه غطاه، قال العلماء : " وَالْغَشْيُ مُسْتَعَارٌ للإخفاء، لِأَنَّ النَّهَارَ يُزِيلُ أَثَرَ اللَّيْلِ وَاللَّيْلَ يُزِيلُ أَثَرَ النَّهَارِ، وَمِنْ بَدِيعِ الْإِيجَازِ وَرَشَاقَةِ التَّرْكِيبِ: جَعْلُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مَفْعُولَيْنِ لِفِعْلِ فَاعِلِ الْإِغْشَاءِ، فَهُمَا مَفْعُولَانِ كِلَاهُمَا صَالِحٌ لِأَنْ يَكُونَ فَاعِلَ الْغَشْيِ، وَلِهَذَا اسْتَغْنَى بِقَوْلِهِ: يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ عَنْ ذِكْرِ عَكْسِهِ وَلَمْ يَقُلْ: وَالنَّهَارَ اللَّيْلَ، كَمَا فِي آيَةِ:[يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ]الزمر: ٥ لَكِنَّ الْأَصْلَ فِي تَرْتِيبِ الْمَفَاعِيلِ فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ يَكُونَ

١ - انظر/ معجم مقاييس اللغة ٤٢٥/٤، المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى:٣٩٥هـ)، بتحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.، مختار الصحاح ٢٢٧/١، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت – صيدا، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م

الْأَوَّلُ هُوَ الْفَاعِلَ فِي الْمَعْنَى "(١)، ومعنى ذلك أن الليل هو الأصل الذي يغشى الشمس بصريح الآية الكريمة في قوله تعالى : [وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا] والشمس٤ ؛ بمعنى أن النهار والشمس يحلان ضيفين على الليل الذي يظلم الكون كله، ولا تتغير ظلمة الأرض الناتجة عن الليل إلا بدوران الأرض حول الشمس ودوران الشمس حول نفسها ما ينتج الليل والنهار وبقية الظواهر الفلكية المعروفة.

- والآيات القرآنية الواردة في كتاب الله – تعالى – قسماً بالليل تظهر بوضوح أن الليل يتحرك كما الكائن الحي تماماً بتمام ؛ فهو الذي يغشى النهار والشمس والأرض، حيث يظهر إسناد حركة التغطية والإظلام لليل على الحقيقة دونما احتياج للقول بمجازية التعبير ؛ لمجيء ذلك في أكثر من قسم بحركة الليل:[كَلَّا وَالْقَمَرِ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ]المدثر ٣٢: ٣٥، وقوله:[فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ] التكوير ١٥ : ١٩، وقوله :[فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ] الانشقاق ١٦: ١٩، وقوله : [وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ]الفجر ٤، وقوله : [وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى] الليل ١، ٢، وقوله :[وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى] الضحى ٢، فجميع الأفعال تعطي إيحاءً بحركة الليل في إحداث هذه الظواهر الكونية.

- ومجيء الفعل في الآية الكريمة على صيغة المضارع يدل على ديمومة هذا الفعل مع الشمس وليس لمجرد مراعاة الفاصلة القرآنية كما ذهب لذلك معظم المفسرين ؛ فإن هذا الفعل مشهود بتكرره كل آن من

١ - التحرير والتنوير ٨ ب / ١٦٧، البحر المحيط ٦٦/٥

الزمن ؛ كما أنه يدلل على أن الليل هو الأصل، فهو قائم ممتد يقطعه بعض الوقت دوران الأرض حول الشمس فإذا ستر جِرم الأرض الشمس من الليل المحيط بالكون كله أضاء الجزء المقابل للشمس من الأرض، وأظلم الجزء المواجه لليل، لكن في الحقيقة أن الليل يغشى الكون كله، وطبيعة الشمس دائماً ملتهبة لا تنطفيء بنص القرآن وتتحرك وفق نظام إلهي مبدع، والليل يغشاها، ولذا عبر القرآن عن أصالة الليل وخروج النهار منه، وعن حركة الشمس بالأفعال المضارعة في قوله – تعالى :[وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ] يس ٣٧، ٣٨ .

– كما يفيد أيضاً استحداث الظلمة المتجددة كل ليلة في الدلالة على بديع صنع الله – تبارك– وتعالى فيكون ذلك طريقاً لإيقاظ النفس من غفلتها المتجددة عليها.

– وهناك ما يشبه الإجماع بين المفسرين على عود الضمير في قوله – تعالى:[يَغْشَاهَا] على الشمس، ولذا قيل : إن الأقسام من أول السورة إلى هنا كلها أقسام بالشمس بحسب الأحوال المتنوعة :

* أَوَّلُهَا: الضَّوْءُ الْحَاصِلُ مِنْهَا عِنْدَ ارْتِفَاعِ النَّهَارِ، وَذَلِكَ هُوَ الْوَقْتُ الَّذِي يَكْمُلُ فِيهِ انْتِشَارُ الْحَيَوَانِ وَاضْطِرَابُ النَّاسِ لِلْمَعَاشِ، وهو ضحاها.

* وَمِنْهَا تُلُوُّ الْقَمَرِ لَهَا وَأَخْذُهُ الضَّوْءَ عَنْهَا.

* وَمِنْهَا تَكَامُلُ طُلُوعِهَا وَبُرُوزِهَا بِمَجِيءِ النَّهَارِ.

* وَمِنْهَا وُجُودُ خِلَافِ ذَلِكَ بِمَجِيءِ اللَّيْلِ([1])، أي أن المخصوص بالقسم في هذه الآيات هو الشمس في حالاتها المتنوعة ؛ كآية عظيمة تدلل على من خلقها وأبدعها هذا الإبداع المحكم.

- قوله تعالى : [وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا] والشمس٥

بعد أن أقسم الله – تبارك وتعالى– بالجرم الأعظم الذي نعلمه في هذا الكون – الشمس – وما يتبعه من مخلوقات عظيمة من ضحى الشمس وبالقمر وضيائه، وبالنهار والليل كآيتين عظيمتين أتبعه بالقسم بالسماء وعظمة بنيانها كدلالة على عظمة بانيها – تبارك وتعالى .

- والسماء هي ذلك الخلق العظيم الذي نراه فوق رؤسنا كالقبة تتناثر فيه مخلوقات الله – تبارك وتعالى – المختلفة من شمس وقمر، ونجوم سابحات وكواكب متناثرة تسبح في الفلك بتدبير الخالق العظيم– تبارك وتعالى .

- وفي بنيان السماء وسمكها فوق الرؤوس الدليل الأعظم على عظمة خالق هذا الخلق ؛ ولذا كثر ذكره في القرآن الكريم بشكل مبهر، فقد ورد ذكر السماء في القرآن الكريم ما يزيد عن المائة موضع، بل أقسم الله – تبارك وتعالى– في غير ما موضع من القرآن الكريم بها كقوله تعالى:[وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ]الذاريات ٧، ٨ وفي قوله تعالى: [وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ] البروج ١ في دلالة ظاهرة على شدة وضوح أثر الصنعة فيها، وعظمتها التي تدل على خالقها.

- وبنيان السماء يعني إقامتها وتسويتها ورفعها بغير عمدٍ فوق الأرض، وتزيينها بما فيها من مخلوقات، وقد تحدث القرآن الكريم حول

---

١ ـ أنظر/ مفاتيح الغيب ١٧٥/٣١، البحر المحيط ٤٨٦/١٠

هذا الموضوع في أكثر من موضع ؛ فتارةً يتحدث عن ذلك بلفظ البناء كقوله: [الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً] البقرة ٢٢، وتارة يتحدث عن هيئة البناء فيقول :[اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا]الرعد٢، وقوله:[خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ]لقمان ١٠، وتارة يبين أنه – تعالى– بناها بقوة فيقول :[وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ]الذاريات ٤٧، وتارة يتحدث عن تزيينها ودقيق أسرارها وحفظها، فيقول :[أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ]ق ٦، ويقول:[إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ] الصافات ٦، ويقول: [وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ]الملك ٥.

– " وهذا الذي نراه فوقنا متماسكاً لا يختل ولا يضطرب تتحقق فيه صفة البناء بثباته وتماسكه، أما كيف هو مبني، وما الذي يمسك أجزاءه فلا تتناثر وهو سابح في الفضاء الذي لا نعرف له أولاً ولا آخراً فذلك ما لا ندريه، وكل ما قيل عنه مجرد نظريات قابلة للنقض والتعديل، ولا قرار لها ولا ثبات ؛ إنما نوقن من وراء كل شيء أن يد الله هي التي تمسك هذا البناء العظيم أن يزول أو يسقط :[إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ]فاطر ٤١ وهذا هو العلم المستيقن الوحيد !" (١).

– والسر في الانتقال للقسم بالسماء وبنيانها، والأرض وطحوها، والنفس وتسويتها بعد القسم بالشمس في حالاتها المتنوعة هو الاستدلال بالمخلوقات على الخالق ؛ فإن الاستدلال بالشاهد على الغائب هو الطريق

١ - أنظر/ في ظلال القرآن ٦/ ٣٩١٧

المنطقي المتبع، فبعدما ذكر الله تبارك وتعالى الشمس – أعظم المخلوقات – وتوابعها، أتبعه ببيان تدبيره – جل وعلا – للكون العظيم كله من السماء والأرض والمركبات، وتحدث عن أعظم المركبات من العالم العلوي والسفلي وتسويته إياها بالحديث عن النفس، فكان كالدليل لمعرفة الله – تبارك وتعالى– وبيان عظمته ووجوب الانقياد للإيمان به – تعالى.

– وقد تنوعت اجتهادات المفسرين في تفسير المراد بـ: [مَا] في الآية على اجتهادات ثلاث وهي:

١– أنها مصدرية، وعليه فتفسير الآية: والسماء وبنائها العظيم، وهو قول قتادة، واختاره المبرد، والزجاج .

٢– أنها موصولة بمعنى الذي، وعليه فتفسير الآية : والسماء والذي بناها،أو وبانيها، أي قسم بالله – تبارك وتعالى– الذي بنى السماء على هذا الوجه العظيم، وهو قول الحسن ومجاهد وأبي عبيدة واختاره الطبري ([١]).

٣– أنها تعجبية، وهو قول أبي بكر الأصم كما نقله الإمام الماوردي – رحمه الله تعالى – في تفسيره، وعليه فتأويل الآية والسماء وما في بنائها من خلق عظيم، يعني من الملائكة والنجوم ، فيكون هذا قسَماً بما في السماءِ، ويكون ما تقدمه قسَماً بما في الأرض ([٢])، وبالتحقيق في

---

١ ـ أنظر تفسير الطبري ٤٣٨/٢٤، وتفسير القرطبي ٧٤/٢٠، ومفاتيح الغيب ١٧٦/٣١ ، و البحر المحيط ٤٨٧/١٠، ٤٨٨

٢ ـ انظر تفسير الماوردي = النكت والعيون ٢٨٣/٦، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، المحقق:السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت / لبنان

هذا التنوع نجد أنه لا يوجد فرق كبير في المعنى بين اجتهاد المفسرين فجميعهم على أن القسم في الآية يحوى الحديث عن عظمة المخلوق المقسم به ومن ورائه عظمة الخالق له – تبارك وتعالى–كسبيل للقسم الأعظم على فلاح من زكى نفسه وخيبة من وضعها مواضع الخيبة والخسار، فتنوع اجتهادات المفسرين هو تنوع نحوي تركيبي أكثر منه تنوع دلالي معنوي .

– قوله تعالى : [وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا] والشمس٦

– بعد أن أقسم– تبارك وتعالي– بالسماء وبنيانها العظيم كدليل للعالم العلوي تنتقل الآيات للقسم بالعالم السفلي وما يحويه، فأقسم – تبارك وتعالى – بالأرض التي خلقها وبسطها ومهدها لتقوم الحياة عليها.

– والأرض اسم جنس لهذا الجِرم المعروف لمن يعيشون عليه جميعاً، ولم يرد له واحدة من لفظه، وتجمع على أرضات، بالألف والتاء، وأرضون إلحاقاً بجمع المذكر السالم، ودليل تعددها من القرآن الكريم قوله – تبارك وتعالى : [اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا] الطلاق١٢، وقد ورد ذكرها كثيراً في القرآن الكريم كثرةً تدل على الاهتمام ببيان حقيقتها للمسلم ليبني على ذلك تصوره ، فقد ورد ذكر الأرض مصرحاً به فيما يزيد عن ٤٣٠ أربعمائة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم، من ذلك قوله – تعالى– بياناً لمنته على خلقه بتيسير سبل العيش عليها : [هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]البقرة ٢٩، وفي بيان خلقها هي والسماوات وردت آيات كثيرة تزيد عن خمسة وعشرين

آية كلها تؤكد خلق الله – تعالى للسماوات والأرض، من ذلك قوله – تبارك وتعالى:[اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ]الزمر ٤ وغيرها من الآيات الكثير.

– ومعنى [طَحَاهَا]:قال اللغويون:" الطَّاءُ وَالْحَاءُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى الْبَسْطِ وَالْمَدِّ، مِنْ ذَلِكَ الطَّحْوُ وَهُوَ كَالدَّحْوِ، وَهُوَ الْبَسْطُ ؛ قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى:[وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا] الشمس٦، أَيْ بَسَطَهَا، وَقَالَ – تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: [وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا]النازعات: ٣٠،وَيُقَالُ: طَحَا بِكَ هَمُّكَ يَطْحُو، إِذَا ذَهَبَ بِكَ فِي الْأَمْرِ وَمَدَّ بِكَ فِيهِ، قَالَ عَلْقَمَةُ: طَحَا بِكَ قَلْبٌ فِي الْحِسَانِ طَرُوبُ ... بُعَيْدَ الشَّبَابِ عَصْرَ حَانَ مَشِيبُ ([1]) أي ذهب هذا القلب كل مذهب.

– ولذا فإن المفسرين قد رأوا أن معنى طحاها في الآية يأتي على وجه مما يلي :

– بسطها، وهو قول سفيان الثوري، وابن زيد، ويقولون أنه مرادف لقوله – تعالى:[وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا] النازعات ٣٠، بإبدال الدال طاء بين دحاها وطحاها،وهي ظاهرة صوتية معروفة لعلماء العربية، أي بسطها من كل جانب، وأن هذا جائز في العربية وجعله ابن كثير هو الوجه الأظهر لدى المفسرين ([2]) .

---

١ ـ أنظر / مقاييس اللغة ٥٤٥/٣ ، والمحيط في اللغة ٥٨٧/١، لسان العرب ٤/١٥

٢ ـ تفسير القرطبي ٧٤/٢٠، تفسير ابن كثير ٣٩٩/٨

- خلقها: وهو مروي عن ابن عباس من طريقين ([1])، وجعلوا منه قول الشاعر :

وما تَدري جذيمةُ مَنْ طحاها ... ولا مَن ساكنُ العَرْشِ الرّفيع.

- أن هيأها للعيش عليها ؛ بما أخرج فيها من نبات وعيون وأنهار وكنوز وجميع أسباب الحياة المختلفة ([2]).

- والأولى أن يقال أن الألفاظ التي فسر بها العلماء هذه الكلمة متقاربة من بعضها البعض، وأن الاختلاف بينها هو اختلاف تنوع وليس اختلاف تناقض، فيكون اللفظ القرآني محتملاً ما ورد منها موافقاً ما عليه اللغة، ويكون معناه : أن الله تبارك وتعالى – خلقها و بسطها ومهدها ويسر للناس سبل العيش عليها تحقيقاً لغرض الخلافة الذي جعله لعمارتها كما قال : [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ] البقرة ٣٠

- قوله تعالى : [وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا] والشمس٧

وجه المناسبة بين هذه الآية الكريمة والتي بعدها وبين ما قبلها من مطلع السورة هو أن الآيات السابقة في هذا المقطع كأنها التمهيد لما يلي من الآيات الثلاث التالية، وذلك يتضح كما يلي :

١- ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالجرم الأعظم في حدود المشاهد للإنسان، والذي يتعلق به معاش الناس – الشمس – وذلك في حالاته

١ ـ انظر تفسير الطبري ٢٤ /٤٤٠

٢ ـ النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢٨٣

المتنوعة:[طلوعها وضحاها-تابعها والقائم بها، وهو القمر – ما يتشكل عنها من ظواهر وهو النهار – و ما يعود للظهور بغيبتها وهو الليل] .

٢- القسم بمحل هذا الجِرم العظيم وهو السماء، وما في بنائها من آيات تبهر أولي الألباب، والتي تمثل العالم العلوي فوق الإنسان.

٣- في الآية التالية ورد القسم بالمقابل له وهو القسم بالأرض التي يعيش عليها الإنسان وكيف مهدها الله – تبارك وتعالى- ليتمكن الإنسان من العيش عليها ؛ ليتخلص مما سبق للقسم بما يليه وهو النفس مناط ومقصد القسم .

٤- جاء القسم بالنفس البشرية كمخلوق مركب من العالمين [الروحي و المادي]، وما فيها من آيات باهرات سواء في ذلك ما يتعلق بتركيبتها المادية في الجسم، أو ما يتعلق بها في جانب القوى النفسية والروحية والتي تبهر الإنسان حين يكشف عن شيء منها .

– والمعنى الإجمالي لهذه الآية هو أن الله – تعالى – يقسم بالنفس البشرية وما أودعه فيها من آيات باهرات تدل على الخالق – تبارك وتعالى .

– والنفس في اللغة تطلق على معانٍ متنوعة على حسب السياق الذي ترد فيه، وأصلها جملة الشيء وحقيقته، وقد أوصل بعض اللغويين أوجه معانيها خمسة عشر وجهاً وهي :الرُّوح، والدَّمُ، والجَسَدُ، والعَيْنُ، والعِنْدُ، والحَقِيقَةُ، وعَيْنُ الشَّيْءِ، والعَظَمَةُ، والعِزَّةُ، والهِمَّةُ، والأَنَفَةُ، والغَيْبُ، والإِرادَةُ، والعُقُوبةُ، والإِنْسَانُ جَميعُه، رُوحُه وجَسَدُه ..... (١).

---

١ - انظر تاج العروس من جواهر القاموس ١٦ /٥٦٤

- وقد ورد اللفظ في القرآن الكريم متنوعاً في دلالاته في مواضع كثيرة تلفت كثرتها انتباه الباحث ؛ حيث ورد لفظ النفس مفرداً ثلاثاً وأربعين مرة، وجاء بصيغة الجمع في أربعة مواضع، وفيما يلي بيان بعض معاني ورودها في القرآن الكريم:

- وردت بمعنى أبي الأنبياء آدم في أربعة مواضع من القرآن الكريم من ذلك قوله – تعالى:[يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً] النساء ١، وقوله: [وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ] الأنعام ٦٨، وورد كذلك في سورة الأعراف ١٨٩ وسورة الزمر ٦ .

- وتارة تأتي ويراد بها كل إنسان حقيقته وجملته، من ذلك قوله – تعالى :[وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ] البقرة ٢٨١، وقوله : [فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ] آل عمران ٢٥، وفي سورة الطارق قوله تعالى :[إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ]الطارق ٤، وغير ذلك من الآيات .

- يراد بها المكلف من المخلوقين ؛ من الإنس والجن قوله تعالى :[هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ] يونس ٣٠، وقوله تعالى : [لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ] إبراهيم ٥١، وقوله تعالى : [يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ] النحل ١١١، ووقله تعالى في سورة السجدة : [وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا

وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ]السجدة ١٣، وغيرها من الآيات .

- يراد بها كل مخلوق من ذلك قوله – تعالى:[كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ] آل عمران ١٨٥، الأنبياء ٣٥، والعنكبوت ٢٧، ومثل ذلك أيضاً في سورة الأنبياء قوله – تعالى: [وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ] وهو عين ما قصده النبي – صلى الله عليه وسلم – في الحديث الصحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ» ([١])، أي أن العدل في ذلك اليوم سيحل على كل نفس حتى من غير المكلفين .

- وقد تأتي ويراد بها الروح ؛ كما في قوله – تبارك وتعالى : [وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ]الأنعام ٧٠

- وقد تأتي ويراد بها العقل الإنساني، وما يعتمل في القلب ؛ كقوله: [وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ] يوسف ٦٨ .

---

١ - حديث صحيح رواه الإمام مسلم في صحيحه ١٩٩٧/٤ في باب تحريم الظلم، حديث رقم ٢٥٨٢

- وقد ترد بمعنى العندية أو عالم الغيب الخاص بالله – تعالى؛ كقوله تعالى : [وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ] المائدة ١١٦، وغير ذلك من المعاني .

- وقد تحدث علماء السلوك عن أنواع النفس في القرآن الكريم فقسموها كما يلي :

- النفس المطمئنة : وهي المذكورة في قوله – تبارك وتعالى:[يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي] الفجر ٢٧: ٣٠،وهي النفس التي اطمأنت بالإيمان إلى الإيمان فاستقام حالها على الإيمان، حتى تلقى الله – تعالى – على هذه الحال.

- النفس اللوامة:وهي المذكورة في قوله –تعالى:[لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ]القيامة ١، ٢وهي النفس المؤمنة التي تلازم لوم صاحبها على الخير كان أو الشر حرصاً منها على الاستزادة من القرب من الله–تعالى قال الحسن:«مَا يُرَى الْمُؤْمِنُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ عَلَى مَا فَاتَ وَيَنْدَمُ، يَلُومُ نَفْسَهُ عَلَى الشَّرِّ لِمَ فَعَلَهُ، وَعَلَى الْخَيْرِ لم لَم يَسْتَكْثِرْ مِنْهُ. »(١).

- النفس الأمارة بالسوء : وهي التي تأمر صاحبها بالاستجابة لدواعي الهوى والشهوات فيه ؛ وهي المذكورة في قوله تبارك وتعالى:[وَمَا

١ - التحرير والتنوير ٣٣٩/٢٩

أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ]يوسف ٥٣

- وقد ورد اللفظ نكرةً ليدل على جنس النفس عموماً لا يقصد به نفس شخصٍ محدد ؛ لما ورد من أوصاف بعدها، وبيان وما أودعه الله – تعالى– فيها من أمور عظيمة اقتضت أن يقسم الله –تبارك وتعالى– بها وبما أودعه– تبارك وتعالى– فيها من استعدادات مختلفة تدل على جنس اللفظ .

- والذي تميل إليه النفس في المراد بالنفس في هذا الموضع من القرآن :[وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا] هو أن النفس تعني: خلقة الإنسان بجميع جوانبها : الجسمية، والروحية والنفسية والعقلية، والتي تميز هذا المخلوق عن غيره من المخلوقات الأخرى، ما جعله عالماً بديعاً في ذاته، يحار في معرفة تفاصيل تكوينه البشر في آلاف السنين، لأن الموضع موضع قسم بأمور عظيمة، ومن أعظم المخلوفات هذا المخلوق المسمى النفس ؛ ولذا قال العلماء :إن عالم النفس االبشرية يحمل جميع أسرار العالم من حوله، وفيه شبه كبير بينه وبينها، فأخذ من العالم من حوله صفاتٍ كثيرة حتى قال الشاعر :

دَوَاؤكَ فيكَ وما تَشْعُرُ ..... وداؤكَ منكَ وما تبصرُ

وتحسبُ أنكَ جِرمٌ صغيرٌ ... .وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ ([1]).

- وتنكير كلمة نفس في هذا الموضع لأنه لا سبيل إلى لام الجنس، لأن نفوس الحيوانات غير الإنسان خارجة عن ذلك بدليل قوله –

١ - مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي ٢٦٥/٩، أحمد قبش بن محمد نجيب، وعزا البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه .

تعالى:[فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا]،ولا سبيل إلى لام العهد لأن المراد ليس نفساً واحدة جاء الحديث عنها قبل ذلك ([1])، وفي هذا رد لتفسير من فسر المراد بالنفس في هذا الموضع أنه آدم – عليه السلام.

– وأما لفظ : [سَوَّاهَا] فيراد به : أن الله –تعالى– خلق النفس البشرية سوية على أفضل حال في جميع جوانبها – الجسدية، والروحية، والعقلية – قال الله – تعالى : [وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ] المؤمنون ١٢: ١٤، وقال : [يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ]الانفطار ٦: ٨، وقال:[وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ]التين ١: ٤

– ومن معاني سواها : جعلها كلها سوية مستقيمة على الفطرة القويمة، وليست منحرفة عن الهداية ؛ لقوله–تعالى : [فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ]الروم ٣٠، وهو مراد النبي في الحديث الصحيح عَنْ أَبَا هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ

---

١ - أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل ٥٧٣/١ المؤلف: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى الناشر: دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية – الرياض الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١ م

يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ؟ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ] الروم ٣٠ ([١])، وما ورد أيضاً عن عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ:" أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا، وَإِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَقَالَ: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ، وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ ..... الحديث ([٢]) ؛ فقول النبي – صلى الله عليه وسلم : مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ وقوله : خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، أي أسوياء على الفطرة التي فطر الله جميع الناس عليها وهي الإسلام لله رب العالمين .

– وعليه فالآية الكريمة : [وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا] والشمس٧ هي امتداد للقسم الذي بدأه الله – تبارك وتعالى– بالشمس في حالاتها المتنوعة على أمر عظيم وهو فلاح من زكى نفسه وخيبة وخسار من انحرف بها عن الفطرة، فأقسم بالنفس وما فيها من أسرار عظيمة أودعها الله – تبارك وتعالى– في خلقها وتسويته إياها في جميع جوانبها

١ ـ حديث صحيح، رواه البخاري في صحيحه ٩٥/٢ حديث رقم ١٣٥٩

٢ ـ صحيح مسلم ٤/ ٢١٩٧، باب الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار ،حديث رقم ٢٨٦٥

الجسمية والروحية والعقلية واستعدادها بالسوية لقبول الخير أو الشر، في سبيل معرفة قدر من سواها فهو الذي سيُلقى إليها التكليف في الآيات التالية بتزكية النفس لتحقيق الفلاح واجتناب ما يؤدي بها إلى الخسران المبين الذي حذر منه بعد ذلك ؛ فكانت هذه الآية كالتوطئة بين يدي الآية التالية لها في بيان فضل الله على النفوس أن ألهمها رشدها وتقواها، وجعلها مستعدة للاختيار ثم تتحمل تبعة هذا الاختيار.

- قوله تعالى : [فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا] والشمس٨ : الإلهام في اللغة:هو مطلق الإعلام والإفهام والتبيين.

- وفي الاصطلاح يراد به : حدوث علم في النفس بدون تعليم ولا تجريب، ولا تفكير، من غير دليل يستند إليه في هذا العلم، وهذا المصطلح إن لم يكن من مستحدثات القرآن الكريم اللغوية فهو مما أحياه القرآن وكان على وشك الموات لتعبيره عن معنىً نفسي دقيق قل أن يستخدم أمثاله العرب قبل الإسلام([1]).

- والفجور: أَصله الشَّقُّ، ثمّ اسْتُعْمِلَ فِي الانْبعاثِ فِي المَعَاصي والمَحَارِمِ ([2]).

- والتقوى لُغَةً الاتقاء وَهُوَ اتِّخَاذ الْوِقَايَة، وَاصْطِلَاحاً:

---

١ - انظر / التحرير والتنوير ٣٦٩/٣٠،

٢ - أنظر / تاج العروس ٢٩٩/١٣، الفائق في غريب الحديث والأثر ٩٠/٣ المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) المحقق: علي محمد البجاوي -محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: دار المعرفة – لبنان، الطبعة: الثانية.

- الاِحْتِرَاز بِطَاعَة الله - تَعَالَى - عَن عُقُوبَته، وَقيل التَّقْوَى: الاِحْتِرَاز عَن الْمُحرمَات([1]) .

- وعلى ذلك فالآية الكريمة متعلقة بالآية السابقة ؛ حيث أقسم - تبارك وتعالى - بالنفس وتسويتها - تعجباً - مما أودعه فيها من استعدادات فطرية لاختيار الخير أو الشر على ما سيرد ذكره جواباً للقسم في قوله - تعالى:[قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا] والشمس ٩، ١٠ فمن تمام تسويتها إفهامها وإلهامها وتعليمهاً ما هو خيرٌ محض وما هو شرٌّ محض، وهذا الكلام يشبه قوله - تعالى:[إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا] الإنسان ٣، وقوله تعالى :[الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى] الأعلى ٢، ٣،وقوله تعالى:[وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ] البلد ١٠، وما ورد في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ:[فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا] الشمس:٨، قَالَ: «اللَّهُمَّ انْتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، زَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهُوَ فِي الصَّلَاةِ كَأَنَّهُ الْقُنُوتُ ([2]) وهذا الحديث يدلل أن الإلهام للفجور أو التقوى هو من الله - تعالى- وفق ما يختاره الإنسان من الطريقين، مع

---

١ - انظر / نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٥٤/٥، دستور العلماء = جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ٢٣٢/١ المؤلف: القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد نكري (المتوفى: ق ١٢هـ) عرب عباراته الفارسية: حسن هاني فحص الناشر: دار الكتب العلمية - لبنان / بيروت الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

٢ - السنة ١/ ١٤٠ المؤلف: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠

بيان أن تحصيل التقوى هو من مؤهلات التعرض لإلهام الله – تعالى– بها.

– وتقديم ذكر إلهام الفجور على التقوى في الآية الكريمة للنكات التالية :

- إما لمراعاة أحوال المخاطبين وهم مشركو قريشٍ يومئذٍ الذين كانوا أكثر عدداً من المؤمنين الذين ألهمهم الله – تعالى–التقوى وهم يومئذٍ قليل .
- وإما لبيان أن إلهامه بهذا المعنى من مبادئ تجنبه وهو تخليةٌ، والتخلية مقدمةٌ على التحلية .
- وإما لمراعاة الفاصلة (١) .

– والوجه الذي نراه في تقديم ذكر الفجور على التقوى في الآية هو مراعاة لحال الكثرة الكاثرة من بني البشر في كل عصر، وأنها التي تسير في طريق الفجور، والتعبير بالفجور دون الكفر يدل على أن الكثرة الكاثرة من البشر دائماً تسلك طريقه، وأن القلة من البشر هم الذين يسلكون طريق التقوى، والقرآن الكريم أكد على هذا المعنى كثيراً ؛ كقوله تعالى : [وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ] الأنعام ١١٦، وقوله تعالى : [وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ] يُوسُفَ: ١٠٣، وقوله تعالى : [وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ] الصَّافَّاتِ: ٧١ ،وفي الحديث عن قلة السالكين لطريق التقوى، الشاكرين لله تعالى– قال:[وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ] سبأ ١٣، وهو عين

---

١ - أنظر/ التحرير والتنوير ٣٦٩/٣٠، وروح المعني، تفسير الألوسي ٣٦٠ /١٥

ما أوضحه النبي في الصحيح عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:"يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى:" يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ " قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيُّنَا ذَلِكَ الوَاحِدُ ؟ قَالَ :" أَبْشِرُوا، فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلًا وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ ؛ فَكَبَّرْنَا فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الجَنَّةِ» فَكَبَّرْنَا، فَقَالَ:«مَا أَنْتُمْ فِي النَّاسِ إِلَّا كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ،أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِي جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ»(١).

– قوله تعالى : [قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا] والشمس٩، ١٠

– هذه الآية الكريمة هي جواب القسم من مطلع السورة على رأي جمهور المفسرين من أهل السنة والجماعة،فيما ورد عن قتادة واختاره الزجاج، وعندهم أن اللام قد حذفت من هذا الجواب للتخفيف مع طول الكلام، وأنَّ " قد" تفيد التوكيد والتحقيق (٢).

---

١ - حديث صحيح رواه البخاري في صحيحه ١٣٨/٤ باب / قصة يأجوج ومأجوج، حديث رقم ٣٣٤٨

٢ - أنظر / تفسير الألوسي ٣٦١/١٥، والتحرير والتنوير ٣٧٢/٣٠، والبحر المحيط ٤٨٩/١٠، وتفسير الرازي ١٧٧/٣١، معاني القرآن وإعرابه ٣٣٢/٥، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج

– وذهب المعتزلة أن الآية ليست جواب القسم، بل على اعتبارها استطراداً للحديث عن إلهام النفس الفجور والتقوى، وأن جواب القسم محذوف وتقديره ليدمدمن الله على قريش كما دمدم على ثمود ؛ للآيات التالية من السورة من قوله – تعالى :[كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا] والشمس ١١ حتى نهاية السورة، قال الزمخشري : فإن قلت: فأين جواب القسم؟ قلت: هو محذوف تقديره: ليدمدمنّ الله عليهم، أى: على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم– كما دمدم على ثمود لأنهم كذبوا صالحاً، وأما قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها فكلام تابع لقوله فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء ([١]) .

– وهو كلام مرجوح ؛ فهو وإن كان وجهاً جائزاً من الناحية اللغوية غير أن فيه بعداً وتكلفاً غير مقصود، والقاعدة التفسيرية الثابتة هي أن مالا يحتاج إلى تقدير في التفسير أولى مما يُلجأ فيه للتقدير.

– وعلى ذلك فالآية الكريمة جواب للقسم من مطلع السورة ؛ لبيان فوز من زكى التقوى في نفسه، وخيبة وخسار من أهمل نفسه للفجور وأخفى التقوى فيها.

– ومعنى أفلح أي فاز، ونجح وحقق المطلوب، والفَلاحُ: الْفَوْز بِمَا يُغتبط بِهِ، وَفِيه صَلَاح الْحَال، وأفْلَح الرجل:أي ظفر، وَيُقَال لكل من أصَاب خيراً: مُفْلِحٌ ([٢]).

(المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

١ - تفسير الزمخشري ٤/ ٧٦٠

٢ - انظر/ تاج العروس ٢٦/٧، النهاية في غريب الحديث والأثر ٤٦٩/٣ .

– ومعنى زكاها : أي نماها وطهرها، وأَصل الزَّكَاةِ فِي اللُّغَةِ الطَّهَارَةُ والنَّماء والبَركةُ والمَدْح، وَكُلُّهُ قَدِ اسْتُعْمِلَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، وأصلها " زَكْوَة " وَوَزْنُهَا فَعَلةٌ كالصَّدَقة، فَلَمَّا تحرَّكت الْوَاوُ وَانْفَتَحَ مَا قَبْلَهَا انْقَلَبَتْ أَلفاً، فصارت زكاة، وقد أورد لها الفيروزآبادي ستة عشر وجهاً وردت عليها الزكاة في القرآن الكريم، وعد منها هذه الآية وجعلها تعبيراً عن النقاء والطهارة ([1]) .

– ومعنى خاب :أي خسر ولم يتحصل على مطلوبه، يقال:خابَ يَخِيبُ خَيْبَةً:إذا حُرِم، وَلَمْ يَنَلْ مَا طَلَب، وخابَ إِذَا خَسِرَ، وخابَ إِذَا كَفَر ([2]).

– ومعنى دساها: أي أخفاها، قال العلماء الدَّسُّ إدخالُ الشيء من تحتٍ، دسَّه يَدُسُّهُ دَساً فانْدَسَّ ودَسَّسَهُ ودَسَّاهُ الأخيرةُ على البَدَلِ كراهيةَ التَّضْعيفِ، وفي التنزيل : [يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ] النحل ٥٩، قالوا وأصل دَسَّاهَا هو دَسَّسَهَا، فَقُلِبَتْ إِحْدَى سِينَاتِهَا يَاءً، لتوالي الأمثال في اللفظ الواحد أي دسيها ؛كَمَا قَالَ الْعَجَّاجُ: تَقَضّيَ الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرْ، يُرِيدُ: تَقَضَّضَ، وَتَظَنَّيْتُ هَذَا الْأَمْرَ، بِمَعْنَى: تَظَنَّنْتُ، وَالْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ كَثِيرًا، فَتُبْدِلُ فِي الْحَرْفِ الْمُشَدَّدِ بَعْضَ حُرُوفِهِ، يَاءً أَحْيَانًا، وَوَاوًا أَحْيَانًا ؛ وَمِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ:

يَذْهَبُ بِي فِي الشِّعْرِ كُلَّ فَنّ ... حَتَّى يَرُدَّ عَنِّيَ التَّظَنِّي، يُرِيدُ: التَّظَنُّنَ ([1]).

---

١ ـ أنظر/ لسان العرب ٣٥٨/١٤، كشاف الظنون ٩٠٧/١، تاج العروس من جواهر القموس ٢٢٢/٣٨، بصائر ذوي التمييز ١٣٥/٣

٢ ـ لسان العرب ٣٦٨/١، وانظر / المحكم والمحيط الأعظم ٢٧١/٥، تاج العروس ٣٨٨/٢

- وجمهور المفسرين على عود الضمير المفعول في الفعلين :[زكاها ودساها] على النفس المذكورة في الآية السابقة، أي قد أفلح من زكى النفس، وقد خاب من دس النفس، ولذا حرص أكثرهم على البحث عن التوفيق الدلالي مع المعنى اللغوي للآية، دون التصرف في تفسير الآية وفق المعنى اللغوي الموضوع للفعلين زكاها ودساها ؛ فقالوامعناه : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى نَفْسَهُ أَيْ بِطَاعَةِ اللَّهِ كَمَا قَالَ قَتَادَةُ: وَطَهَّرَهَا مِنَ الْأَخْلَاقِ الدَّنِيئَةِ وَالرَّذَائِلِ، وَيُرْوَى نَحْوُهُ عَنْ مُجَاهِدٍ وَعِكْرِمَةَ وَسَعِيدِ بْنِ جبير، وكقوله تعالى:[قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى]الْأَعْلَى: ١٤-١٥ وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاها أَيْ دَسَّسَهَا أَيْ أَخْمَلَهَا وَوَضَعَ مِنْهَا بِخِذْلَانِهِ إِيَّاهَا عَنِ الْهُدَى حَتَّى رَكِبَ الْمَعَاصِيَ وَتَرَكَ طَاعَةَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ ([٢]) .

- ويحتمل أن يكون ضمير المفعول في الفعلين:[زكاها ودساها] عائداً على أقرب اسم مذكور قبله وهو التقوى في قوله - تعالى [فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا] الشمس ٨، وليس هناك مانع لغويٌّ ولا تفسيريٌّ من ذلك، بل قد يكون ذلك أقرب لحمل الفعلين على المعاني اللغوية الموضوعة للفعلين مباشرة دون تأويل ؛ لأنه إعادة للضمير على أقرب مذكور قبله، فيكون معنى الآية على ذلك:قد فاز من أعلى ونمى وزاد التقوى في نفسه ما أدى إلى خفاء وخمول الفجور فيها ؛ لأن النفس - كما اتضح من الآية السابقة - ملهمةٌ لكلا الاستعدادين : الفجور والتقوى ؛ فإذا نما

---

١ - تاج العروس ٧٤/١٦ ، تفسير الطبري ٤٤٤/٢٤، معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٣٢/٥، الدر المصون ٢١/١١

٢ - تفسير ابن كثير ٤٠٠/٨، تفسير القرطبي ٧٧/٢٠، التحرير والتنوير ٣٧١/٣٠

أحدهما وزاد يكون على حساب خفاء الآخر، فحين يُنمي ويُزيد المؤمن جانب التقوى في نفسه فإنه لا محالة يخفي من نفسه الفجور ؛ فتزكو نفسه وتتطهر من الفجور، وقد خاب وخسر من أخفى التقوى في نفسه بأن اختار زيادة الفجور على حساب التقوى ؛ لأنه نمى الفجور على حساب التقوى فأخفي نصيب التقوى في نفسه .

- وإعادة الضمير في قوله:[دساها] على التقوى يؤدي إلى أن يتسق صرف الضمير مع المعنى اللغوي الموضوع للفعل وهو الإخفاء والنقص كما سبق بيانه ؛ فيكون معنى الآية على ذلك وقد خاب وخسر من أخفى ونقص التقوى التي في نفسه بأن اختار الفجور وزاده ونماه في نفسه ما أدى إلى امتلاء النفس فجوراً على حساب التقوى التي لم يعد لها مكان في نفسه فخاب بذلك، وخسر .

- وتقديم الفلاح على الخيبة في الآية الكريمة على عكس ما سبق من تقديم الفجور على التقوى في الآية السايقة لنكات بديعة منها :

- مناسبة الانتقال من الحديث عن إلهام النفس الفجور والتقوى للحديث عن عاقبة هذه التقوى مباشرة وهو الفلاح، فهو أقرب في الذكر للتقوى ؛ ما يزيد النفس ترغيباً في هذه التقوى ؛ فيكون أيسر في تحصيل المقصود .

- أن الفلاح والفوز بالنعيم المقيم هو الغاية التي تتعلق بها نفوس العاقلين، فوجب تقديمه ؛ لاشتياق النفوس إليه.

- تأخير ذكر خيبة من دساها ؛ هو بيان لتأخر مرتبة من دس وأخفى التقوى وسمح لفجوره بالنمو على حساب تقواه.

- كما أن هذا التأخير هو توطئة للحديث عن النموذج الواقعي والمثال الشاهد على الخيبة وهو ذكر قصة ثمود في أعقابها، فكان ذكر الفلاح

أقرب لما ذكر قبله من التقوى، وذكر الخيبة والخسار أقرب لما ذكر بعده من ذكر خيبة ثمود.

- والمحسن البديعي الغالب في هذه الآيات هو الطباق بين المتقابلات اللغوية مِثْلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لِاخْتِلَافِ وَقْتِ ظُهُورِهِمَا، وَمِثْلُ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَالتَّجْلِيَةِ وَالْغَشْيِ، وَالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَالْبِنَاءِ وَالطَّحْوِ، وَالْفُجُورِ وَالتَّقْوَى، وَالْفَلَاحِ وَالْخَيْبَةِ، وَالتَّزْكِيَةِ وَالتَّدْسِيَةِ، وهو مما يزيد المعنى جلاءً وبياناً ووضوحاً ([1]) .

القضايا الواردة في ثنايا المقطع السابق

- **أولاً حكم القسم الإلهي في مطلع السورة بالمخلوقات:**

افتتح الله – تبارك وتعالى– هذه السورة الكريمة بالقسم بعدد من مخلوقاته فأقسم بالشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض، والنفس وتسويتها فأقسم بهؤلاء على فلاح من زكى نفسه بالتقوى، وخسران من ترك تزكية نفسه للفجور.

وقد ثبت عن النبي – صلى الله عليه وسلم– النهي الصريح عن الحلف بغير الله ففي الحديث الصحيح عَنْ عَبْدِ اللَّهِ– أي: ابن عمر – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»([2])،كما نهى النبي عن الحلف بالآباء فعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،أَنَّهُ أَدْرَكَ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ فِي رَكْبٍ وَهُوَ يَحْلِفُ

---

١ - أنظر / التحرير والتنوير ٣٠/٣٧٢

٢ - صحيح البخاري ٣/١٨٠، باب: كيف يستحلف ؟ حديث رقم ٢٦٧٩،

بِأَبِيهِ، فَنَادَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا، إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ، وَإِلَّا فَلْيَصْمُتْ»([1]).

وقد ورد في غير ما موضع من القرآن الكريم القسم بالمخلوقات كالقسم بالصافات، والنجم، والطور، والذاريات، والمرسلات، وغير ذلك مما ورد ذكره في القرآن الكريم، ولتحرير المسألة نقول وبالله التوفيق :

القسم – بداية – هو يمين يقسم بها الحالف ؛ ليؤكد شيئاً يخبر عنه، وهو عبارة عن جملة يؤكد بها المقسِم أمراً آخر في الكلام في أسلوب بديع يسمى أسلوب القسم، والجملة المستخدمة للتوكيد هي ما يسمى المقسم به، والمعنى المؤكد هو المقسم عليه .

- والفائدة البلاغية للقسم عموماً هي توكيد المعنى المساق لدى المتلقي، وقد يرد معها فعل يحمل معنى القسم فيسمى فعل القسم وقد يحذف، فذكره كقوله تعالى: [وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ] الأنعام ١٠٩، وحذفه كقوله تعالى:[لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ]آل عمران ١٨٦، ولورود هذا الأسلوب كثيراً في القرآن الكريم عُني العلماء بدراسته والتأصيل له .

وقد ورد القسم الإلهي في القرآن الكريم على نحو من اثنين :

١- آيات ورد القسم فيها بالله – تبارك وتعالى – ذاته نحو قوله تعالى: [فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ]الحجر ٩٢، ٩٣، وقوله: [فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا]مريم

---

١ - صحيح البخاري ٢٧/٨ حديث رقم ٦١٠٨

٦٨، ومن ذلك أيضاً قوله – تعالى: [فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ]المعارج ٤٠،

٢- آيات ورد القسم فيها بفعله – تبارك وتعالى- أومفعوله نحو:[وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ] الصافات ١: ٤ وقوله – تعالى:[وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ] التين ١: ٤ .

وفي تصريف جواز القسم بالمخلوقات في القرآن الكريم قال العلماء :إن القسم بهذا المخلوقات جاء على وجه مما يلي :

– إما على تقدير مضاف في القسم أي ورب كذا نحو قوله – تعالى: [وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ]البروج ١: ٤ فيكون القسم : ورب السماء ..... ورب اليوم الموعود .... وهكذا .

– وإما على الإبقاء على القسم معللين ذلك أنه طريقة العرب في كلامهم حين يريدون التعظيم للمقسم به لتوكيد المعنى المقسم عليه .

– وإما تعليلاً لذلك أن الأقسام تكون بما يعظمه المقسم أو يجله، والله – تبارك – وتعالى ليس فوقه شيء، فأقسم بنفسه، ومصنوعاته التي تدل عليه – عز وجل ؛ قال ابن أبي الإصبع : القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع ؛ لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل ؛ إذ يستحيل وجود مفعول دون فاعل ([١]) .

– والأولى في ذلك أن يظل اللفظ على حقيقته جرياً على طريقة العرب في البيان، وبياناً أن لله – تعالى- أن يقسم بما شاء وليس لأحد أن يسائله

١ - أنظر الإتقان في علوم القرآن ٥٣/٤

في ذلك ؛ فإنه- تبارك وتعالى- لا يُسأل عما يفعل، وهم يُسألون، وليس للمؤمنين إلا أن يقسموا بما شرعه لهم - تبارك وتعالى - على لسان نبيه في الحديث السابق:"من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت ".

– وقدورد التوكيد في القرآن الكريم على عربية هذا الكتاب، ومعنى ذلك أنه جاء على طريقتهم في البيان، قال تعالى : [وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ] النحل ١٠٣، [وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ] الشعراء ١٩٢: ١٩٦، كما ورد أن هذا الكتاب آياته محكمة بقوله تعالى: [الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ] هود١، وإحكام آياته يعني أن كل حركة وحرف وكلمة وآية مقصودة بذاتها لتقوم بالمعنى الموضوع فيها من لدن حكيمٍ خبيرٍ .

– كذلك للرد على من يقول بإضافة محذوف قبل المقسم به من المخلوقات قال العلماء إن ذلك مردود لثلاث حجج :

١- أنه يجب أن يصرف اللفظ على حقيقته بحسب ظاهره إلا لدليل ينقض ذلك .

٢- أن القول بتقدير محذوف قبل المقسم به يستلزم التكرار في القسم في بعض المواضع القرآنية وهو لا يجوز ؛ كقوله تعالى:[وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا] الشمس ٥: ٧، فسيكون المعنى على تقدير محذوف ذكراً : ورب السماء ورب من بناها، ورب الأرض ورب من طحاها، ورب نفس ورب من سواها، وهو تأويل ظاهر الفساد .

٣- أَنَّهُ لَا يبعد أن تكون الحكمة في ذلك من قسم اللهِ – تَعَالَى بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ التَّنْبِيهَ عَلَى شَرَفِ ذَوَاتِهَا وَكَمَالِ حَقَائِقِهَا (١) ؛ قال ابن القيم رحمه الله – تعالى : " وهو سبحانه يقسم بأمور على أمور وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته وآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته فالقسم إما على جملة خبرية وهو الغالب كقوله تعالى: [فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ]الذاريات ٢٣،وإما على جملة طلبية كقوله تعالى:[فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ]الحجر ٩٢، ٩٣ مع أن هذا قد يُراد به تحقيق المقسم عليه فيكون من باب الخبر وقد يراد به تحقيق القسم، والمقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها فأما الأمور الظاهرة المشهورة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماء والأرض فهذه يقسم بها ولا يقسم عليها وما أقسم عليه الرب فهو من آياته فيجوز أن يكون مقسماً به ولا ينعكس (٢).

---

١ - أنظر / تفسير الرازي مفاتيح الغيب ٣١٦/٢٦، وانظر السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير ٣٦٨/٣، المؤلف: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ)، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة عام النشر: ١٢٨٥ هـ.

٢ - التبيان في أقسام القرآن ١/١ ، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان

- وفي بيان الغرض البلاغي من القسم في القرآن قال أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ:"إِنَّ اللَّهَ ذَكَرَ الْقَسَمَ لِكَمَالِ الْحُجَّةِ وَتَأْكِيدِهَا وَذَلِكَ أَنَّ الْحُكْمَ يُفْصَلُ بِاثْنَيْنِ: إِمَّا بِالشَّهَادَةِ وَإِمَّا بِالْقَسَمِ، فذكر- تعالى- النوعين حتى لا يبقى لهم حجة، قالوا : ولا يكون القسم إلا باسم معظم لتوكيد المعنى لدى المتلقي ([1]). قال العلماء([2]) : وورود القسم الإلهي في القرآن الكريم يكون لتوكيد أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها كما يلي:

- تارة يقسم على التوحيد ؛ وذلك كقوله تعالى : [وَالصَّافَّاتِ صَفّاً فَالزَّاجِرَاتِ زَجْراً فَالتَّالِيَاتِ ذِكْراً إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ]الصافات ١: ٤

- وتارة يقسم على أن القرآن حق كقوله تعالى:[فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ] الواقعة ٧٥: ٧٧،وقوله : [حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً] الزخرف١: ٣

- وتارة على أن الرسول حق كقوله تعالى : [يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ]يس ١: ٤، وقوله : [وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى] النجم ١: ٥

- وتارة على الجزاء والوعد والوعيد ؛كقوله تعالى:[وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ]سبأ ٣ : ٥،

---

١ - أنظر / البرهان في علوم القرآن ٤١/٣، الإتقان في علوم القرآن ٥٣/٤،

٢ - التبيان في أقسام القرآن ٣/١

وقوله : [وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ] الذاريات ١: ٦ وقوله : [وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ] الطور ١: ٨

– وتارة على حال الإنسان؛كقوله:[وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى]الليل ١: ٤، وكقوله : [وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ]التين ١: ٦ .ومن اللمحات الهامة حول قضية القسم في القرآن الكريم هي أن الكثرة الكاثرة من الأقسام الإلهية إنما هي بالمخلوقات الموجودة في الكون كله من فلك وسماء وأرض ونجوم ومخلوقات متنوعة وحية، ولعل ذلك راجع إلى أن الله– تعالى – يريد أن يؤسس لإيمان المؤمنين به على النظر في الكون من حولهم وعظمة خلقه في دلالة على الخالق له – تبارك وتعالى– فيكون إيماناً يقينياً طريقه اليقين العقلي، وليس مجرد التسليم القلبي بالخالق – تبارك وتعالى.

– والقسم الوارد في سورة الشمس هو من النوع الأخير من أنواع القسم السابق ذكرها ؛ إذ القسم فيها على القضية المحورية في حياة الإنسان كل الإنسان، والمترتب عليها نجاته وفوزه وفلاحه، أو خيبته، وخسارته، وسقوطه وهي قضية الفلاح والخسارة في حياة الإنسان كمخلوق مكلف بعمارة هذه الأرض .

– وبالضرورة لابد أن يكون هناك رابطٌ بين المقسم به في القرآن الكريم وبين القضية التي ورد القسم لتوكيدها وفي هذه السورة أقسم الله – تعالى

– بالشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض، والنفس وتسويته إياها على قضية خطيرة بالنسبة للإنسان وهي محور الخلق والتكليف وهي فلاح من زكى نفسه بالتقوى وخسران من ترك نفسه للفجور، والمناسبة – والله أعلم – بين المقسم به والمقسم عليه هي أن الله – تعالى – قد خلق جميع المخلوقات التي أقسم بها بين يدي المقسم عليه للإنسان ليحقق الهدف من خلقه هو، وهو القيام بواجب العبادة لله – تعالى– ليصل لتزكية نفسه فيفلح في الدنيا والآخرة.

– ما أقسم الله – تبارك وتعالى – به في مطلع السورة تمثل الآيات الباهرات التي يقر جميع الخلق بعظمتها، كما يعلمون جميعاً إفتقار هذه الآيات المقسم بها إلى من أوجدها ؛ فعلى الرغم من عظمتها إلا أنها تمثل في عين الجميع وعقله المفعول به لا الفاعل، والجميع يعلم أنها مصنوعة فلا بد لها من صانع هي مفتقرة إليها، فهي طريق للوصول لمعرفة الله – تعالى – الخالق، والذي لا يماري أحد من الخلق في خلقه – تعالى – إياها ؛ حتى إن نبي الله إبراهيم حين جادل من ادعى الألوهية في سورة البقرة بخلق الشمس كآية عظيمة مخلوقة ألجأه للإقرار بالدينونة لله ؛ لعجزه عن التدخل في مسار انتظام حركة الشمس التي لا يملك لها هذا الأمر إلا خالقها وهو الله – تعالى :[أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ] البقرة ٢٥٨، فذكر هذه الآيات في مطلع السورة والقسم بها للدلالة على عظمتها، وللدلالة على خالقها، ولبيان خطورة القضية التي جاءت هذه الآيات العظيمة للقسم بها عليها .

– كذلك فإن النفس التي هي محور الفلاح أو الخسارة التي أقسم الله – تعالى – عليها في السورة تعد مخلوقاً مركباً انطوى فيها العالم كله، سواء كان العالم العلوي، أو العالم السفلي،فجاء القسم على تلك الآيات في مطلع السورة كالتهيئة بذكر العالمين العلوي والسفلي تمهيداً لبيان القضية الأساسية في حياة النفس التي هي مركب من العالمين .

– فالنفس البشرية التي جعلها الله – تبارك وتعالى– مناط التكليف، وجعلها محور القسم في هذه السورة قد رُكبت من العالم العلوي والعالم السفلي ؛ حتى قال بعضهم وليس في العالم الآفاقي شيء إلا وفي العالم النفساني نظيره ؛ ولذا فإن الشاعر المسلم قد أدرك هذه الحقيقة وهو يقول :

دواؤك فيك وما تبصر ... وداؤك منك وما تشعر

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر ([1]).

ثانياً: معالجة الواوات الواردة في السورة

الواو فى القرآن وفى اللغة تأتي على وجوهٍ كثيرة أوصلها بعضهم أكثر من عشرين وجهاً، وهي حرفٌ من حُروف الهجاءِ شَفَوِيّ يحصلُ من انْطِباق الشَّفَتَين جِوارَ مَخْرج الفاءِ، والنِّسبة إليه واوِيٌّ، والفِعْل منه واوَيْتُ واواً حَسَناً وحَسَنةً، والأَصل وَوَّوْتُ، لكن لمَّا اجتمعت أَربعُ واوات متوالية استثقلوه فقلبوا الواو الثانية أَلفاً والرابعة ياءً فصارت وَاوَيْتُ، وجمعه: واواتٌ ([2]) .

---

١ ـ البيتين ينسبان للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، أنظر تفسير الألوسي ٨٢/١، ٢٢٧، نظم الدرر ٧٧/٢٢

٢ ـ انظر / بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١٤٥/٥

- وقد تعددت الواوات الواردة في سورة الشمس، فتكررت في السورة تسع مرات كلها للعطف إلا الواو الأولى منها للقسم، وقد اختلف تفسير العلماء لما ورد في السورة من واوات بعد واو القسم الأولى :

١- فجميعهم على اعتبار الأولى هي واو القسم، واختلفوا فيما بعدها من واوات فجعلها فريق من قبيل القسم المتكرر مع كل آية مما ذكر في السورة، ورد الآخرون باعتبارها واو عطف على القسم الأول وليست من قبيل القسم المستقل مع كل آية.

٢- والواو الأولى في السورة هي واو القسم باتفاق بين العلماء، وهي حرف قسم لكنها فرعٌ في القسم وليست أصلاً ؛ لأنها متفرعة عن الباء، وهي تجر ما بعدها، ولا يجوز إعمالها الجر إلا بشروط ثلاثة كما قال العلماء:

- أولها:أنها تختص بالظاهر ولا تدخل على الضمير.

- ثانيها:يجب حذف فعل القسم معها فيقال: والله، ولا يجوز أن يقال: أقسم والله.

- ثالثها:أنها لا تستعمل في قسم الإخبار(١)، وقد وردت في القرآن الكريم في كثير من أساليب القسم ؛كقوله تعالى: [وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ

---

١ - فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية (نظم الآجرومية لمحمد بن أبَّ القلاوي الشنقيطي) ٦٤/١، المؤلف (مؤلف الشرح): أحمد بن عمر بن مساعد الحازمي، الناشر: مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م، وانظر المفصل في صنعة الإعراب، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) ٣٨٣/١، المحقق: د. علي بو ملحم، الناشر: مكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣

صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى]النجم ١، ٢،وقوله:[وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا]المرسلات١، وقوله:[وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ]البروج ١ وغيرها كثيرٌ في القرآن الكريم .

– وأما واو العطف فهي التي أريد بها عطف حكم على آخر سابق له، ومعنى الواو هو مطلق الاجتماع بين ما قبلها وما بعدها ولا تفيد الواو ترتيب الحكم بالنسبة لما جمعت بينهما، تقول : قام زيد وعمرو، أي اجتمع القيام لكل منهما، ولكن لا يدري كيف ترتيب حالهما في هذا القيام([1]) .

وبالتحقيق في أمر الواوات الواردة في السورة بعد الآية الأولى نجد أن جميعها هي واو عطف وليست واو قسم لما يلي:

١– أن القسم يقع على مقسم به ومقسم عليه، فالمقسم به في الآية هو آية عظيمة من آيات الله – تبارك وتعالى– وهي الشمس، والمقسم عليه هو فلاح من تزكى وخيبة من ترك التزكية فتدسى، وما بين المقسم به والمقسم عليه هو آيات معطوفة على القسم بالشمس، فكأنها أخذت معنى القسم بها، دون أن تكون قسماً مستقلاً بكل واحدة من تلك الآيات ؛ لأن القسم يستلزم مقسم عليه، فلو جعلنا كلاً منها قسَماً مستقلاً لصار كل قَسم منها محتاجاً إلى مقسم عليه .

٢– قال العلماء : في قوله – عز وجلَّ:[والليل إذا يغشى والنَّهار إذا تجلى، وما خلق الذَّكر والأنثى]والليل ١، ٢ : الواوان الأخريان ليستا بمنزلة الأولى، ولكنهما الواوان اللتان تضمان الأسماء إلى الأسماء– أي

١ ـ الكتاب: اللمع في العربية ١/ ٩١، المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، المحقق: فائز فارس، الناشر: دار الكتب الثقافية – الكويت .

واو العطف- في قولك: مررت بزيدٍ وعمروٍ، والأولى بمنزلة الباء والتاء- أي واو القسم- ألا ترى أنَّك تقول: والله لأفعلنَّ ووالله لأفعلن، فتدخل واو العطف عليها كما تدخلها على الباء والتاء، وقد قيل للخليل بن أحمد : فلم لا تكون الأخريان بمنزلة الأولى؟ فقال: إنَّما أقسم بهذه الأشياء على شيءٍ واحد، ولوكان انقضى قسمه بالأول على شيء لجاز أن يستعمل كلاماً آخر فيكون، كقولك: بالله لأفعلن، بالله لأخرجنّ اليوم، ولا يقوى أن تقول: وحقِّك وحقِّ زيد لأفعلن، والواو الآخرة واو قسمٍ، لا يجوز إلا مستكرهاً، لأنَّه لا يجوز هذا في محلوفٍ عليه إلا أن تضم الآخر إلى الأول وتحلف بهما على المحلوف عليه([1]) .

٣- وعليه فالواو الواردة للقسم في السورة هي المفتتح بها السورة، وما بعدها واوات عطف على المعنى، وجواب القسم هو:[قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا] الشمس ١٠،لأن توحيد جواب القسم يفيد أن الواو التي للقسم في الآيات هي الواو الأولى فقط، وما بعدها هي واواتٌ عواطف وإلا لاحتاجت كل واوٍ منها جواباً مستقلاً، وقد حذفت اللام من جواب القسم ؛ لطول الكلام .

ثالثاً: بيان نوع "ما" الواردة في السورة

وردت كلمة ما في القرآن الكريم في مواضع كثيرة جداً، حيث وردت في القرآن مئات المرات تعبيراً عن دلالات متنوعة ؛ فتارة تأتي ويراد

---

١ - أنظر/ الكتاب ١٠٥/٣، المؤلف: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م، المقتضب للمبرد ٣٣٦/٢،شرح المفصل ٢٦٣/٥، وبصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١٤٩/٥

بها الاسم الموصول بمعنى الذي أو الذين، تعبيراً عن مبهم وجمع كثيراً ؛من ذلك قوله تعالى:[وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ]آل عمران ١٠٩، ١٢٩، النساء ١٢٦، ١٣١، ١٣٢، والنجم ٣١، وتارة تأتي نافية كقوله تعالى : [وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ]الذاريات ٤١، ٤٢، وقد تأتي ويراد بها مع الفعل بعده المصدر الصريح من هذا الفعل نحو قوله تعالى:[ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ] غافر ٧٥ أي بفرحكم ومرحكم .

وقد وردت هذه الكلمة في سورة الشمس في ثلاثة مواضع يتبعها أفعال تتسق والمعنى الواردة له ؛ وهو قوله- تعالى : [وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا]والشمس ٥: ٧ وقد اختلف المفسرون في تأويل المراد بها في هذه المواضع، وأي الأنواع هي عليه كما يلي :

١- ذهب فريق من المفسرين أن ما في هذا الموضع مصدرية فتُأول مع الفعل بعدها، أي والسماء وبنائها، والأرض وطحوها والنفس وتسويتها، وقالوا : هذا وجه عظيم تعرفه العرب في لغتها ؛ وهو قول قتادة وغيره واختاره المبرد والزجاج وانتصر له كل من الرازي، والألوسي وغيره ؛ قال الألوسي: " أي :وبنائها الدال على قدرة الله العظيم، أي والقادر العظيم الذي بناها، فدل على وجوده وكمال قدرته بناؤها، والمراد بذلك إيجادها بحيث تدل على الله ويستدل بها عليه، ثم قال : وهو أولى من تفسيره ببانيها ؛ لإشعاره بالمراد من البناء "([1]).

١ - أنظر/ تفسير الألوسي ٣٥٩/١٥، تفسير الرازي ٣٤٠/٨، ٤٨٦/٩

٢- والرأي الثاني وهو أن ما في هذه المواضع موصولة، وعليه يكون المراد بالقسم هو القسم بالسماء، والقسم بمن بناها، أي والذي بناها، وهو قول الحسن، وأبي عبيدة ومجاهد واختاره الطبري وحمل لواء التعصب له والدفاع عنه الزمخشري نصرة لمذهبه ودساً لأفكاره الاعتزالية ؛ فقال في تفسيره :" جعلت ما في هذا الموضع مصدرية، وليس بالوجه ؛ لقوله – تعالى- بعدها :[فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا] الشمس ٨ وما يؤدي إليه من فساد النظم، مشترطاً ومتعللاً بعود الضمير من قوله – تعالى- فألهمها على مذكور قبله، فجعل كلمة ما موصولة لتسد هذا الأمر"([١]).

٣- والقول الأخير هو أن ما في هذه المواضع تعجبية، وهو قول أبي بكر الأصم نقله الماتريدي في تأويلاته ([٢]) وبالتحقيق في المسألة يتضح أن تفسير ما في هذه الآيات على أنها مصدرية أولى من صرفها إلى أي من الوجهين الآخرين لما يلي :

- <u>أن جعلها مصدرية يحمل معنى القسم بفاعل هذا الفعل والمصدر الصريح منه</u>، فكأن الآيات تشير إلى التعجب مما في عظمة هذا البناء من وجوهٍ تدفع المتأمل ليتسائل : ومن بناها فتدل على بانيها دون تصريح، وهي طريقة للقرآن الكريم للتعامل مع العقل الإنساني والقلب

---

١ - انظر / تفسير الزمخشري ٧٥٩/٤، البيضاوي ٣١٥/٥، والنسفي ٦٤٨/٣

٢ - أنظر / تأويلات أهل السنة ١٠/ ٥٤١ تفسير الماتريدي المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ) المحقق: د. مجدي باسلوم الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

دون توجيه مباشر حتى تنساب المعاني الدقيقة للقلب مباشرة وإلى العقل الباطن، فيكون الإيمان ؛ كحديث القرآن عن البعث في سورة النبأ، وسؤال المشركين عنه، فأجابهم الله – تعالى – عليه بما يدل عليه من فعل الله في الكون وآثار صنعته الظاهرة الدالة على قدرته على ذلك بقوله:[عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا]النبأ ١: ١٧ .

– أن تأويلها بالموصولة هو تكرار ممتنع في القسم عند من يقدر قبل القسم بالمخلوقات تقدير كلمة رب، يعني والشمس وضحاها يقدرون قبل المقسم به لفظ رب فيكون القسم ورب الشمس ورب ضحاها، لذا فيكون القسم بالسماء وما بناها كأنه يقول : ورب السماء ورب من بناها، وهو تقدير مردود، لا يقبل .

– لو جاءت ما موصولة دلالة عن الله – تعالى– في القسم لأدى ذلك إلى تأخير القسم بالخالق ليرد في الآيات بعد القسم بالمخلوقين، وهو تركيب كرهه العلماء ([1]) ؛ فيكون تأويلها على المصدرية أولى من تأويلها بالموصولية .

– وفي رد العلماء على قول الزمخشري بوجوب جعلها موصولة فراراً من عود الضمير على غير مذكور إن جعلتها مصدرية في قوله تعالى : [فألهمها فجورها وتقواها] قالوا : "و لا يلزم ما قاله الزمخشري ؛ لأنا إذا

١ ـ أنظر تفسير الرازي ١٧٣/٣١

جعلناها مصدرية عاد الضمير على ما يفهم من سياق الكلام ؛ ففي بناها ضمير عائد على الله – تعالى– أي وبناها هو، كما إذا رأيت زيداً يضرب عمراً فتقول : عجبت مما ضرب عمراً تقصد مِن مَنْ ضرب عمراً، وكان ذلك حسناً فصيحاً لا حرج فيه، وعود الضمير على ما يفهم من السياق كثير في اللغة وهو حسن، قالوا : وقول الزمخشري " بفساد النظم إن جعلت ما مصدرية ليس حسناً ؛ فإنه لا يؤدي جعلها مصدرية إلى ما ادعاه ([1]).

رابعاً:الإلهام الإلهي بالفجور والتقوى

ورد في السورة المباركة قوله تعالى : [فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا]والشمس ٨ وهذه الآية الكريمة من الآيات العظيمة التي تحوي من المعاني النفيسة ما يحتاج المسلم تدبره، وهي تحرر القول في قضية من أعظم القضايا التي شغلت الفكر الإسلامي في عصوره المختلفة، وهي قضية حرية الإرادة الإنسانية، وترتب الجزاء على عمل الإنسان ؛ فقد افترقت الآراء فيها مدارس متنوعة كما يلي :

أولاً : ذهب الجبرية إلى أن الله – تعالى – يجبر الإنسان على عمله في الدنيا– هدايةً وإضلالاً– والذي يترتب عليه مصيره في الآخرة، ولم يثبتوا للإنسان في ذلك إرادة مطلقاً ؛ محتجين ببعض الآيات القرآنية التي تحمل معانٍ تحتاج في تفسيرها لغيرها من الآيات التي أثبتت عكس ما اتخذه أولئك سنداً ودليلاً لهم على ما ذهبوا إليه، من ذلك قولهم في الاعتداد بقوله تعالى : [بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ]الأنعام ١٠١ وقوله : [قُلِ

---

١ ـ الدر االمصون ٢٠/١١

اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ]الرعد ١٦، وقوله تعالى : [وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا] الفرقان ٤٩، وقوله : [اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل] الزمر ٦٢، وقوله : [إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَر] القمر ٤٩، وغير ذلك من الآيات التي اكتفوا بها دون النظر فيما ورد من أدلة صريحة تثبت للإنسان اختياراً وإرادة تترتب عليها أعماله التي يتحدد على إثرها مصيره في الآخرة .

ثانياً : ذهب أهل الاعتزال إلى القول بالإفراط في قدرة العبد على هداية نفسه استقلالاً عن مشيئة الله – تبارك وتعالى – في الباب، محتجين على ذلك بأصل عقلي وضعوه وهو العدل الإلهي، ولذا أولوا هذه الآية الكريمة بأن الإلهام هنا معناه مجرد الإعلام والإفهام ليكون الإنسان حراً في اختياره بنفسه دون تأثير من هداية الله – تعالى – له في ذلك، قال الزمخشري : ومعنى إلهام الفجور والتقوى: إفهامهما وإعقالهما، وأنّ أحدهما حسن والآخر قبيح، وتمكينه من اختيار ما شاء منهما ([1])، واستندوا في ذلك على آيات قرآنية تؤكد على الحرية المطلقة للإنسان في اختيار الهداية أو رفضها دون دخل في ذلك من خارجه، من ذلك احتجاجهم بقوله – تعالى :[وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُم] البقرة ٢٣٨، وقوله : [ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ] الروم ٤١، وقوله : [الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ] غافر ١٧، وقوله : [وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا

١ - تفسير الزمخشري ٤/ ٧٥٩

يُظْلَمُونَ] الجاثية ٢٢، وقوله : [كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ]المدثر ٣٨، وقوله : [فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِين] المدثر ٤٨ .

- وأما أهل السنة والجماعة فلم يفرطوا ولم يفرطوا، فأثبتوا للعبد أفعالاً اختيارية، وأثبتوا أن الله خالق كل شيء فهو الخالق للعبد وخالق قدرته وإرادته، وتأثير قدرة العبد لا يكون إلا بمشيئة الله – تعالى – فالعبد وجميع أفعاله بمشيئة الله – تعالى – مع أن العبد يفعل اختياراً بالقدرة والإرادة اللتين خلقهما الله – تعالى – فيه فعلاً اختيارياً يثاب عليه ويعاقب عليه ([1]).

- وبالتحقيق في المسألة نرى أن الله – تعالى– قد أبان في قرآنه الكريم أن الله – تعالى – هو الذي يمنن على الإنسان بالهداية أو الضلال، ومن نعمته – تبارك وتعالى– أن رتب الجزاء للإنسان على العدل فهو لا يظلم الناس شيئاً ولذا يمكن القول : إن الآية الكريمة ترشد إلى وجود دلالات متنوعة وردت في هذه السورة لمعرفة الخير والتفرقة بينه وبين الشر كما يلي :

- ***الدلالة الأولى : هي دلالة الفطرة*** وهي المستقاة من هذه الآية الكريمة، وهي المودعة في النفس البشرية بأن هذا حق وهذا باطل، وهو المفهوم من قوله تعالى : [فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا]الشمس ٨، ولعله المشار إليه في حديث النبي – صلى الله عليه وسلم– الصحيح عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ:الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ،

١ - دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب ١/ ٢٧١

وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ(١)،فقوله – صلى الله عليه وسلم : " مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ" فوجود إنكار قلبي في النفس للإثم هو دليل الفطرة المودع إلهاماً لها في النفوس، ومنه – أيضاً ما ورد عَنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ:" دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ (٢)، فالذي يوجد الريبة في الصدر من الإثم هو البقية الباقية من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وبحسب رعايتها وتنميتها يكون أثرها وتكون فاعليتها، وبحسب طمسها وتدسيتها يكون علو الران عليها فتختفي، وتعجز أن تدعو صاحبها لترك الإثم والبعد عنه .

– *<u>الدلالة الثانية هي دلالة العقول</u>* وتمييزها بين الحق والباطل، والخير والشر والصواب والخطأ، وهي من تمام تسوية الله تعالى للنفس المذكورة في قوله تعالى :[وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا] والشمس٧ ؛ فإن الله – تبارك وتعالى– قد سوى الإنسان في أحسن صورة، وخلقه في أحسن تقويم، ومن تمام حسن تسويته وتقويم خلقه إيداعه – تعالى – العقل في هذا الإنسان وبه يستطيع أن يوازن بين الخير والشر ؛ ليختار بينهما فتكون خاتمته مترتبة على تمام اختياره الحر، ودلالة العقول هذه هي

---

١ - حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه ١٩٨٠/٤ باب / تفسير البر والإثم حديث رقم ٢٥٥٣

٢ - حديث حسن رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ١١٠/٤، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥ هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠، قال الذهبي : سنده قوي .

العقول الحرة السوية وليست العقول المنحرفة المعلولة التي تتبع المعوج، وتحرف المستقيم.

- ***الدلالة الثالثة دلالة الرسل*** : وهي من كرم الله – تعالى- على خلقه ؛ فهي التي تضبط وتقوم الدلالتين السابقتين وصولاً لمعرفة وتمييز الخير من الشر ؛ لإنه قد تنتكس الفطرة بطول الانحراف ما يؤدي لتغطيتها بالران ؛ كما قال – تبارك وتعالى : [كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ] المطففين ١٤، ١٥ ، كما أن موازين العقول قد تنحرف ؛ فتأتي دلالة الرسل لتعين الإنسان بجانب ما منح من الدلالتين السابقتين على اختيار طريق النجاة .

- لذا فما ذهب إليه أهل السنة في هذه القضية هو ما ينطق به القرآن الكريم وهو عين ما ورد في السنة ؛ ذلك أن القرآن الكريم في سبيل إيضاح هذه القضية الخطيرة بالنسبة لمصير الإنسان أكد على عدد من القواعد العليا للتصور الصحيح، كما يلي بجانب النصوص القرآنية المباشرة :

١- بيان ازدواج الطبيعة البشرية، فهو الكائن المخلوق من الطين، والمنفوخ فيه من النفخة الإلهية التي جعلت له قيمةً عليا عن بقية المخلوقات: [وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ] الحجر٢٨، ٢٩، وقوله : [إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ] ص ٧١ : ٧٤، فهو الكائن مزدوج الطبيعة مزدوج الاستعداد للخير والشر .

٢- القرآن الكريم يؤكد مع ما سبق على التبعة الفردية لكل إنسان وأنه سيأتي الله – تعالى – فرداً وحيداً يحاسب عن ما كان منه في الحياة الدنيا ؛ لقوله تعالى : [وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ] الأنعام ٩٤، وقوله تعالى : [الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ] غافر ١٧، وقوله : [وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُون] الجاثية ٢٢ وقوله تعالى : [كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ] المدثر ٣٨، وهذا يقتضي أن يختار الإنسان ما فيه نجاته في الآخرة .

٣- القرآن الكريم يقرر أن الله – تعالى – يكافيء كل إنسان بعمله واختياره،في طريق الهداية والإيمان ؛ فمن اتبع الهداية التي وضعها الله – تعالى- فيه كافأه الله – تعالى – بزيادتها ؛ لقوله: [وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ] محمد ١٧، ومن استنكف عن اتباع طريق الهداية أضله الله- تعالى- لقوله تعالى : [قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى] طه ١٢٣ : ١٢٧، وقوله :[وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُون] الأنعام ١١٠

– وعليه يمكن القول :إن الله – تبارك وتعالى – قد وضع في كل نفسٍ الاستعداد للفجور والتقوى، وأعطى الإنسان العقل ليميز به بين الحق والباطل

والخير والشر، والهداية والضلال، كذلك أنعم عليهم بالرسل الذين جاءوا بما هو موضوع في النفس أجلاً ليبينوا الحق منه، ويظهروا الباطل منه، ثم يكون اختيار المرء لذلك ولا يكون كل ذلك إلا عن تقدير الله –تعالى – بما يكون بعلمه الشامل، وليس تقديراً يجبر المرء على سلوك طريق معين، بل هو التقدير الأزلي بالعلم الشامل بما سيكون عليه اختيار كل إنسان، والأصل في الباب أن النبي –صلى الله عليه وسلم– أعلمنا أن ذلك لا يكون إلا بكرم الله – تعالى، وكل إنسان يعمل بما يسره الله – تعالى– له من العمل، ففي الصحيح عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى عَلَيْهِمْ، قَالَ فَقَالَ: أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا؟! قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعاً شَدِيدًا، وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ اللهِ وَمِلْكُ يَدِهِ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَقَالَ لِي: يَرْحَمُكَ اللهُ، إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزِرَ عَقْلَكَ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ، وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: " لَا، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: [وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا]والشمس٨ ([1])، فجاء حديث النبي – صلى الله عليه وسلم – كأنه التفسير النبوي للقرآن الكريم في هذه القضية، وإذا ثبت القول عن النبي – صلى الله عليه وسلم وجب المسير إليه والتمسك به وعدم الانحراف عنه .

١ - صحيح مسلم ٤/ ٢٠٤١ حديث رقم ٢٦٥٠ باب : خلق الآدمي في بطن أمه

- وفي بيان أن التزكية الواردة في الآية التالية مسندةً للإنسان لا تكون إلا بفعل الله وتقديره ورد حديثٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: [فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا]الشمس: ٨، قَالَ: «اللَّهُمَّ ائْتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، زَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا»(١) فهذا كأنه البيان الصريح في المسألة من النبي – صلى الله عليه وسلم.

المقطع الثاني

نموذج واقعي لمن خاب وخسر فأذاقه الله – تعالى– وبال أمره في الدنيا قبل الآخرة، الآيات من ١١: ١٥

وفي هذا المقطع عرض وجيز لنموذج عملي من نماذج البشرية الخائبة، وهو نموذج قوم ثمود الذين هداهم الله فاستحبوا العمى على الهدى ؛ فكافأهم الله – تعالى - بعقوبته العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، فكان جزاؤهم من جنس عملهم أن أهلكهم الله – تعالى - بذنوبهم في عذاب حسي يقصه النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - على قومه ليأخذوا العبرة والعظة من ذلك فلا يردوا موردهم ؛ حتى لا يحل عليهم ما حل في أسلافهم من العذاب العاجل في الدنيا غير ما ينتظرهم من عذاب الآخرة.

- قوله تعالى : [كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا] والشمس ١١ : أي كذب قوم ثمود بسبب طغيانهم وتكبرهم وعتوهم .

- ووجه تخصيص ثمود من بين بقية الأمم المكذبة في هذا الموضع في أعقاب القسم على فلاح من زكى التقوى في نفسه وخيبة من دساها في

١ - السنة لابن أبي عاصم ١/ ١٤٠

نفسه هو ضرب النموذج العملي لمن سمح للفجور بالزيادة على حساب التقوى في نفسه ؛تعريضاً بالجاحدين من المخاطبين برسالة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – فإن ثمود قد ألهمهم الله – تعالى – الفجور والتقوى كبقية البشر فآثروا تدسية التقوى في نفوسهم لحساب تزكية الفجور، فسمحوا لتكبرهم وتجبرهم وضلالهم أن ينازع الهداية في نفوسهم فطغوا ؛ فحلت فيهم سنة الله – تعالى – التي يعامل بها خلقه، والتي أبانها في موضع آخر من مواضع القرآن حديثاً عن أولئك الهالكين:[وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ]فصلت ١٧

– كَذَّبَتْ : أي تمرست على التكذيب واتخذته منهجاً لها فلم تخالفه بل أضحى سمة أساسية في مواقفهم من رسل الله – تعالى، وقد حذف مفعول التكذيب في هذا الموضع ليطلق العقل في استدعاء كل أوجه تكذيب ثمود كما يلي :

١– وجه تكذيبهم نبيهم في أمره إياهم بالإيمان بالله – تعالى – وعبادته – عز وجل ؛ لقوله :[وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] الأعراف ٧٣ وقوله تعالى : [وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ قَالُوا يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ] هود ٦١، وقوله : [وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ

فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ] النمل ٤٥، ودليل كفرهم بالله تعالى قوله : [أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ] هود ٦٨

٢- تكذيبهم جميع المرسلين لقوله تعالى : [كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ] الشعراء ١٤١، وقوله تعالى : [كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ] القمر ٢٣ : ٢٦ .

٣- تكذيبهم للآية التي بعثها الله –تعالى- دليلاً على رسالة نبيهم فكذبوا ما رأته أعينهم، وأعظم التكذيب للمعجزة تمثل في عقرهم الناقة التي كانت المعجزة المشهودة أمام أنظارهم ؛ فبطغيانهم وتكبرهم وعتوهم كذبوا ما رأته أعينهم كشاهد على صدق نبيهم فاستحقوا الوصف بالتكذيب في هذا الموضع .

٤- تكذيبهم إمكانية حلول النقمة الدنيوية عليهم وأخذهم بطغيانهم وتعجل العذاب : [هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ]الأعراف ٧٣ .

٥- من أبشع تكذيبهم وطغيانهم هو عزمهم على قتل صالح ومن معه ؛ قال تعالى:[وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ]النمل ٤٨،٤٩

٦- وجه آخر من وجوه تكذيبهم هو تكذيبهم بالآخرة وما فيها من أحداث ووقائع بدليل قوله – تعالى : [كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ] الحاقة ٤، ٥ .

- والمراد بـ " ثَمُودُ " هي قبيلة ثمود وهم أصحاب الحجر وقيل سموا بهذا الاسم" ثمود" ؛ نظراً لقلة مائهم من قول العرب : ثمد الماء إذا كان قليلاً، والثمد هو الماء القليل، وكانوا من القوّة والمَهارة والحَذاقة بحدٍّ يَبْنُون من الصَّخْر الأَصمّ والجَبل الراسى بَيْتاً عظيماً مَنْحُوتاً، وهم كانوا أَيضاً شَعْباً من عاد قوم هُود، وهم الَّذين قيل لهم : عادٌ الأُخْرَى، ولمّا دعاهم صالح إلى الله طلبوا منه المعجزة، فقال: عَيِّنُوا لى ما شئتم، فقالوا: على سبيل الاستهزاء أَخْرِج لنا ناقةً من هذا الحجر؛ فأَوحى الله إليه إنَّا قد خلقنا ناقةً فى قلب هذه الصَّخْرة منذ أَربعة آلافِ سنةٍ، وقد ضاق صَدْرها وضاق مكانُها، فادع الله بخلاصها من هذا المَضيق، فدَعاه – تعالى – فانشقت الصّخرةُ من ساعتها، وخرجت ناقةٌ ونُتِجَت فى الحال، ولم يترك القوم تَمَرُّدَهم وتكذيبهم فأَشْرَكها الله معهم فى الماء، وظنُّوا أَنَّها تضيّق عليهم فقصدوها وعقروها، وكانت سببَ دَمارهم وخرابَ ديارهم ([1]).
- وذكر هذا التكذيب لكل القبيلة"ثمود "هو على التغليب، فإن هناك فريقاً منهم آمن بدليل قوله – تعالى :[فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ]هود ٦٦ وقوله – تعالى: [وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ] النمل ٥٣ .
- المراد بـ : " بِطَغْوَاهَا" الباء أي بسبب والطغوى على زنة فعلى أي بطغيانها، قال العلماء : " (طَغَا) يَطْغَى بِفَتْحِ الْغَيْنِ فِيهِمَا وَيَطْغُو (طُغْيَانًا) وَ (طُغْوَانًا) أَيْ جَاوَزَ الْحَدَّ،وَكُلُّ مُجَاوِزٍ حَدَّهُ فِي الْعِصْيَانِ (طَاغٍ) وَ (طَغِيَ) بِالْكَسْرِ مِثْلُهُ،وَ (أَطْغَاهُ) الْمَالُ جَعَلَهُ (طَاغِيًا)، وَ (طَغَى) الْبَحْرُ هَاجَتْ

١ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١٠١/٦

أَمْوَاجُهُ، وَطَغَى السَّيْلُ جَاءَ بِمَاءٍ كَثِيرٍ وَ (الطَّغْوَى) بِالْفَتْحِ مِثْلُ (الطُّغْيَانِ)([1])، وإيثار استخدام الطغوى دون الطغيان في هذا الموضع لعلتين :

- الأولى لموافقة رؤوس الآي ومحافظة على النظم .
- والثانية هي أنها أريد بها هنا الاسم دون الوصف ؛ قال الزجاج : أَصْلُها طَغْيَاهَا، وفَعْلى إذا كانتْ مِن ذواتِ الياءِ أُبْدِلَتْ فِي الاسْمِ واواً ليُفْصَل بينَ الاسْمِ والصِّفةِ، تقولُ: هِيَ التَّقْوَى([2]).

- قوله تعالى : [إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا] والشمس ١٢ أي بلغ طغيان هؤلاء في التكذيب ذروته حين انبعث أشقى القوم ليقوم بجريمته الكبرى في حق ناقة الله – تعالى– ليعقرها فتصدى له نبي الله صالح محذرا إياهم من عقرها أو التعرض لها بسوء.
- قوله : " إِذِ " ظرف زمان تعبيراً عن التوقيت الذي انبعث فيه أشقى ثمود ليقوم بجريمة عقر الناقة ؛ مبالغة في التكذيب له ولرسوله .
- " انْبَعَثَ " أي سار مبعوثاً من القوم ليقوم بجريمته، وانبعث مطاوع للفعل بعث، والانبعاث الاسراع فى الطاعة للباعث ما يدل على أن هذا الشقي لم ينطلق من تلقاء نفسه بل كلفه أشقياء القوم ليقوم بجريمته الكبرى، فما فعل ذلك حتى ارتضى جل الهالكين فعلته النكراء ؛ قال قتادة : " بَلَغَنَا أَنَّ أُحَيْمِرَ ثَمُودَ لَمْ يَعْقِرِ النَّاقَةَ حَتَّى تَابَعَهُ صَغِيرُهُمْ وَكَبِيرُهُمْ، وَذَكَرُهُمْ وَأُنْثَاهُمْ، فَلَمَّا اشْتَرَكَ الْقَوْمُ فِي عَقْرِهَا دَمْدَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِذُنُوبِهِمْ "([3]) .

---

١ ـ انظر مختار الصحاح ١٩١/١، العين ٤٣٤/٤،

٢ ـ انظر تاج العروس ٣٨/ ٤٩٥

٣ ـ انظر / تفسير القرطبي ٧٩/٢٠، تفسير ابن كثير ٤١٤/٨، فتح القدير ٥٤٨/٥

- " **أَشْقَاهَا**" : أي أشد ثمود شقاءً وهو عاقر الناقة، وهو معروف عند المفسرين بأنه :قُدَارَ (بِضَمِّ الْقَافِ وَتَخْفِيفِ الدَّالِ الْمُهْمِلَةِ) بْنَ سَالِفٍ، وَزِيَادَتُهُ عَلَيْهِمْ فِي الشَّقَاوَةِ بِأَنَّهُ الَّذِي بَاشَرَ الْجَرِيمَةَ وَإِنْ كَانَ عَنْ مَلَأٍ مِنْهُمْ وَإِغْرَاءٍ (١)، وقد ورد في النص على أنه أشقى الأولين حديث من طريق ضعيف عَنْ عُثْمَانَ بْنِ صُهَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ عَلِيٌّ، قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَشْقَى الْأَوَّلِينَ؟ قُلْتُ: عَاقِرُ النَّاقَةِ، قَالَ: «صَدَقْتَ، فَمَنْ أَشْقَى الْآخِرِينَ؟» قُلْتُ: لَا عِلْمَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الَّذِي يَضْرِبُكَ عَلَى هَذِهِ وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى يَافُوخِهِ، وَكَانَ يَقُولُ: وَدِدْتُ أَنَّهُ قَدِ انْبَعَثَ أَشْقَاكُمْ فَخَضَّبَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ، يَعْنِي لِحْيَتَهُ مِنْ دَمِ رَأْسِهِ (٢) .
- وعلى هذا فهو وإن كان الذي قام بالجريمة أشقى القوم إلا أنهم جميعاً مشتركون فيها، وذلك المستفاد من لفظ القرآن "**انْبَعَثَ**"،وكذلك ما ورد في القرآن في موضع آخر بياناً أنهم تواطأوا معه على تلك الجريمة النكراء ؛ لقوله – تعالى: [فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ]القمر ٢٩، فضلاً أن القرآن يهتم كثيراً بترسيخ المسئولية الجماعية عن المجتمع في كثير من آياته، وهو هدي النبي – صلي الله عليه وسلم ؛ كقوله تعالى : [وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ]الأنفال ٢٥ ؛ لذا لما نزل العذاب لم يستثن منهم إلا المؤمنين فحسب .

---

١ - أنظر / التحرير والتنوير ٣٧٣/٣٠، تفسير القرطبي ٧٩/٢٠، تفسير ابن كثير ٤١٤/٨، فتح القدير ٥/ ٥٤٨

٢ - مسند أبي يعلى الموصلي ٣٧٧/١، المعجم الكبير للطبراني ٣٨/٨ مسند صهيب رقم ٧٣١١

- قوله تعالى : [فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا] والشمس ١٣ أي قام رسول الله إليهم محذراً، مما أقدموا عليه من فعل شنيع، قائلاً لهم: [هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ] الأعراف ٧٣، هود ٦٤، فحذرهم أن ينالوا الناقة بسوء أو يمنعوها سقياها وشربها ؛ حتى لا ينالهم العذاب الذي توعدهم به.
- " فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ" استخدام الفاء فيه الدلالة على مسارعة نبي الله في نهيهم عن الإقدام على نيل الناقة بأي وجه من أوجه الإيذاء، ما يدل على الواجب في مثل هذا الموقف من ضرورة المسارعة في النهي عن المنكر الذي قد يؤدي لعطب في المجتمع بأسره.
- وقول تعالى :" فَقَالَ لَهُمْ" أي باشرهم بالدعوة القولية ولم يتلكأ عن نهيهم عن الجريمة التي بيتوها .
- وإضافة وصفه بالرسالة للفظ الجلالة الله – تبارك وتعالى :" رَسُولُ اللَّهِ" ليكون ذلك أدعى لقبول نصيحته، وزجراً عن مخالفته، وفي ذلك التعريض بحال النبي محمد الذي يتلو هذا القرآن مع قومه فهو لا يقوم بما يقوم به إلا إعمالاً لتكليف الرسالة كما قام به من قبله من يعرض هو قصته عليهم ليعتبروا بمصائر الغابرين قبل أن يعتبر غيرهم بهم .
- " نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا" نصبت الناقة على التحذير أي احذروا أن تقربوها بسوء واحذروا أن تمنعوها سقيها، فهي مفعول به لفعل محذوف تقديره احذروا عقرها، أو اتركوها وسقيها .
- وإضافة الناقة للفظ الجلالة " نَاقَةَ اللَّهِ " هو على التعظيم لشأنها، وهو أدعى لهم للاستجابة لتحذيره إياهم أن يمسوها بسوء، فنسبتها لله – تعالى– كان ينبغي أن تكون مانعة لهم عن مقارفة هذه الجريمة التي

أوجبت لهم العقاب في الدنيا قبل الآخرة ؛ لأنها دلت على تمرد مطلق وتحد سافر لله – تبارك وتعالى– ذاته.

وَسُقْيَاهَا:اسْمُ مَصْدَرِ سَقَى، وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى التَّحْذِيرِ، أَيِ احْذَرُوا سَقْيَهَا، أَيِ احْذَرُوا غَصْبَ سَقْيِهَا، فَالْكَلَامُ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَوْ أُطْلِقَ السُّقْيَا عَلَى الْمَاءِ الَّذِي تُسْقَى مِنْهُ إِطْلَاقًا لِلْمَصْدَرِ عَلَى الْمَفْعُولِ فَيَرْجِعُ إِلَى إِضَافَةِ الْحُكْمِ إِلَى الذَّاتِ،..... فَإِنَّ مَادَّةَ سُقْيَا تُؤْذِنُ بِأَنَّ الْمُرَادَ التَّحْذِيرُ مِنْ أَنْ يَسْقُوا إِبِلَهُمْ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي فِي يَوْمِ نَوْبَتِهَا ([1]).

- قوله تعالى : [فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا] والشمس ١٤ أي تمادوا في تكذيبهم، وأصروا على عنادهم، وظاهر بعضهم بعضاً في ارتكاب جريمة قتل الناقة، فجاء جزاؤهم سريعاً موافقاً لما ارتكبوه من جرائم، بأن ألصقهم الله – تعالى – بالتراب فأصبحوا في ديارهم جاثمين ؛ فاستووا في العقوبة كما استووا في ارتكاب الجريمة .

- ومجيء التركيب اللغوي للآية على هذه الصورة :[فَكَذَّبُوهُ – فَعَقَرُوهَا – فَدَمْدَمَ – فَسَوَّاهَا] الفعل الماضي والعطف بالفاء دلالة على تأكد وتحقق وقوع هذه الأفعال وسرعة ترتب وقوعها على بعضها البعض ؛ فلما كذبوه تمادوا في ذلك مسرعين بعقر الناقة ؛ فجاء جزاؤهم بسرعة وهو أن أهلكهم الله – تعالى – بالدمدمة، فسوى الله – تعالى – الجميع من هؤلاء أمام حلول بأسه فيهم .

- فَكَذَّبُوهُ : أي تمادوا في تكذيب نبيهم ؛ وهو تفصيل بعد الإجمال السابق في قوله – تعالى: " كَذَّبَتْ ثَمُودُ"، وتطوى في هذه الآية قصة

---

١ ـ التحرير والتنوير ٣٧٤/٣٠

ثمود بسرعة تناسب الجو العام للقرآن المكي، كما تناسب الغرض الأساسي من السورة وهو التعريض للمشركين بغيرهم زجراً لهم أن ينالهم ما نال هؤلاء المكذبين الذين تُروى عليهم قصتهم كي يعتبروا من موقفهم فلا يركبوا الجريمة التي ارتكبها أولئك وهي الجريمة الكبرى ضد الرسل وهي " فَكَذَّبُوهُ"، وهو الإجمال الذي فصل في مواضع أخرى من القرآن الكريم كانت تناسب مقام التفصيل هناك ؛ إعلاماً لهم بتفاصيل القصة، التي أجملت ههنا.

- **وفي قوله تعالى** : " فَكَذَّبُوهُ" دليل أنهم تمالئوا على تكذيبه مرات متكررة، وأنه كانت هناك محاولات منه لثنيهم عن الاستجابة عن طاعة المسرفين المفسدين من قومه رؤوس الفساد والإفساد ؛ دليل ذلك قوله تعالى : [فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ] الشعراء ١٥٠: ١٥٢ وقد أصر هؤلاء المفسدون على التمادي في إقناع قومهم بكفرهم وعناد نبي الله – تعالى – بل البطش به والتواطؤ على قتله لقوله – تعالى : [وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ] النمل ٤٨ : ٥٣

- **فَعَقَرُوهَا**: عَقَرَهُ عَقْرًا مِنْ بَابِ ضَرَبَ جَرَحَهُ، وَعَقَرَ الْبَعِيرَ بِالسَّيْفِ عَقْرًا : ضَرَبَ قَوَائِمَهُ بِهِ ؛ وَلَا يُطْلَقُ الْعَقْرُ فِي غَيْرِ الْقَوَائِمِ، وَرُبَّمَا قِيلَ عَقَرَهُ إِذَا

نَحَرَهُ، وَالْعَقْرُ: جَرْحُ الْبَعِيرِ فِي يَدَيْهِ لِيَبْرُكَ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْأَلَمِ فَيُنْحَرَ فِي لَبَّتِهِ، فَالْعَقْرُ كِنَايَةٌ مَشْهُورَةٌ عَنِ النَّحْرِ لِتَلَازُمِهِمَا([1]) .

والفعل هنا قد أسند لهم أجمعين على الرغم أن فعل العقر قد لا يقوم به إلا واحدٌ نظراً لاتفاقهم على ذلك وتواطؤهم معه على القيام بالجريمة ؛ دليله قوله – تعالى : [فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ]القمر ٢٩ فالفعل : " فَنَادَوْا" والفعل :" انْبَعَثَ" دليل أن ذلك كان عن مطاوعة بين الملأ الفاعل المباشر لهذا الفعل .

- وعقرهم الناقة هو قمة الكفر بالله – تعالى – لأنه الممارسة الفعلية للعناد والتمرد والتحدي والتكذيب ؛ فهو دليل استهزاء بالمعجزة، ومن أرسلت المعجزة لتأييده بها، ومن أخرجها لهم تأييداً لرسوله ونبيه ؛ ولذا ببلوغهم هذا الفعل من الاستهزاء استوفوا من الله مالهم من حلم، وأمسوا أهلاً لحلول نقمة الله عليهم فوصلوا لمرحلة إغضاب الله عليهم فاستأهلوا النقمة التي أبادتهم :[فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ] الزخرف ٥٥ فكانت هي الدمدمة التي حلت عليهم.

- قوله : " فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ"، قال العلماء: دَمْدَمْتُ الشَّيْءَ إِذا أَلْزَقْتَهُ بالأَرض وطحْطحْته، ودَمَّهُمْ يَدُمُّهُمْ دَمّاً: طَحَنَهُمْ فأَهلكهم، وَكَذَلِكَ دَمْدَمَهُمْ ودَمْدَمَ عَلَيْهِمْ،وقيل : دَمْدَمَ أَرْجَفَ، وزلزل ؛ وَقَالَ ابْنُ الأَنباري: دَمْدَمَ أَي غَضِب ([2])، ولعلماء التفسير في ذلك وجوه كما يلي :

---

١ -المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ٤٢١/٢ ، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، النحرير والتنوير ٣٧٤/٣٠

٢ ـ لسان العرب ٢٠٨/١٢

١- أَحَدُهَا: قَالَ الزَّجَّاجُ: مَعْنَى دَمْدَمَ أَطْبَقَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ، يُقَالُ: دَمْدَمْتُ عَلَى الشَّيْءِ إِذَا أَطْبَقْتَ عَلَيْهِ، وَيُقَالُ: نَاقَةٌ مَدْمُومَةٌ، أَيْ قَدْ أَلْبَسَهَا الشَّحْمَ، فَإِذَا كَرَّرْتَ الْإِطْبَاقَ قُلْتَ دَمْدَمْتُ عَلَيْهِ.

٢- قَالَ الْوَاحِدِيُّ: الدَّمُّ فِي اللُّغَةِ اللَّطْخُ، وَيُقَالُ لِلشَّيْءِ السَّمِينِ: كَأَنَّمَا دُمَّ بِالشَّحْمِ دَمًّا،فدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ، أَطْبَقَ عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ وَعَمَّهُمْ كَالشَّيْءِ الَّذِي يُلَطَّخُ بِهِ مِنْ جَمِيعِ الْجَوَانِبِ .

٣- الْوَجْهُ الثَّانِي: تَقُولُ لِلشَّيْءِ: يُدْفَنُ دَمْدَمْتُ عَلَيْهِ، أَيْ سَوَّيْتَ عَلَيْهِ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ، فَسَوَّى عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ بِأَنْ أَهْلَكَهُمْ فَجَعَلَهُمْ تَحْتَ التُّرَابِ .

٤- الْوَجْهُ الثَّالِثُ: قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: دَمْدَمَ غَضِبَ، وَالدَّمْدَمَةُ الْكَلَامُ الَّذِي يُزْعِجُ الرَّجُلَ.

٥- وَرَابِعُهَا: دَمْدَمَ عَلَيْهِمْ أَرْجَفَ الْأَرْضَ بِهِمْ رَوَاهُ ثَعْلَبٌ عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ، وَهُوَ قَوْلُ الْفَرَّاءِ (١)

- وقد عبر الله – تعالى – عن الهلاك الذي أنفذه في ثمود بعباراتٍ قرآنية متنوعة ؛ فذكره باسم الصاعقة في قوله – تعالى : [فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ] فصلت ١٧، وعبر عنه بالصيحة في قوله: [وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِين] هود ٦٧ ، وعبر عنه بالرجفة في قوله– تعالى : [فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ] الأعراف ٧٨ ، وعبر عنه بالطاغية في قوله– تعالى:[كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ] الحاقة ٤، ٥، وعبر عنه بالعذاب في قوله– تعالى:[فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ

١ - تفسير الرازي ١٨٠/٣١

فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ] الشعراء ١٥٧، ١٥٨، ومعنى هذه الآيات كلها راجع إلي انتقام الله – تعالى– من هؤلاء الفجار الذين حادوا الله ورسوله، وكذبوا ما توعدهم بم رسولهم فحلت عليهم نقمة الله – تعالى–التي أتت على تلك الصور السابق ذكرها نكاية في هؤلاء المجرمين جزاء وفاقاً لجريمتهم الكبرى التي ارتكبوها لأنهم استحبوا العمى على الهدى كما أوضح ربنا – تبارك وتعالى .

- وذلك أن الله – تعالى – عاقبهم باستحقاقهم العذاب منه بكفرهم به، وتكذيبهم رسوله فأصبحوا أثراً بعد عين، بمنزلة الغثاء الذي لا قيمة له، ولا منفعة من ورائه:[فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ] المؤمنون ٤١
- والصيحة هي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس ؛ قال الإمام ابن كثير – رحمه الله :" الظاهر أنهم اجتمع عليهم صيحة، مع الريح الصرصر العاصف القوي البارد، فأصبحوا أثراً لا قيمة له ؛ فجعلهم الله غثاءً أي صرعى، هلكى كغثاء السيل، وهو الشئ الحقير الذي لا قيمة له. (١)
- وقيل في هذه الصيحة وكيف حدثت أنه صاح بهم جبريل – عليه السلام – صيحةً واحدةً مع الريح التي أهلكهم الله – تعالى– بها، فماتوا عن آخرهم. (٢) .

(١) تفسير الإمام ابن كثير ٥ /٤١٣

(٢) انظر: تفسير القرطبي ١٢٤/١٢، وتفسير البغوي ٥ / ٤١٨ .

- وقيل :"الصيحة هي صوت الصاعقة، وإسناد الأخذ إلى الصيحة مجازٌ عقلي ؛ لأن الصيحة سبب الأخذ أو مقارنة له ؛ فإنها تحصل من تمزق كرة الهواء عند نزول الصاعقة (١) .
- وهذه الصيحة العظيمة التي أطلقها جبريل فيهم كانت من الشدة والقوة بحيث خلعت قلوب هؤلاء المجرمين ؛ فجعلتهم يُرجُفون، ولذا أطلق الله – تعالى – الأخذ لهم على الرجفة، والرجفة هي الزلزلة الشديدة، قال الإمام القرطبي – رحمه الله –:"كانت صيحةً شديدة خلعت قلوبهم، يقال : رجف الشيء يرجف رجفاً ورجفاناً، وأرجفت الريح الشجر ؛ إذا حركته، وأصله حركة مع صوت"(٢) .
- وقد أثرت هذه الرجفة فيهم تأثيراً عظيماً ؛ بحيث أذهبت أرواحهم بعد أن أذهلت عقولهم ؛ فتركتهم صرعى مُلقوْن على وجوههم، قد لُصقوا بالتراب، وذلك نكايةٌ في تعذيبهم ؛ ليكونوا عبرةً ماديةً بموتهم، ومعنويةً بإخزائهم ؛ بحيث يموتون على هذه الهيئة المخزية، قيل في قوله:[فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ] العنكبوت ٣٧ أي ميتين، وهو استعارة من قولهم جثم الطير، إذا قعد ولطأ الأرض، ولصق بها (٣)، وهي الصورة التي تدل على الدمدمة .
- وعلى الرغم من ورود الآيات الكثيرة للحديث عن إهلاك هؤلاء بصيغ وتعبيرات مختلفة إلا أن كلها يرجع معظمه إلى شيء واحد، وهو أن الله – تعالى – أرسل عليهم صيحة أهلكتهم، وهي الصوت المزعج، كما أن

---

(١) التحرير والتنوير ٥٩/١٨

(٢) انظر : تفسير القرطبي ٢٤٢/٧، تفسير البحر المحيط ٣١٥/٥ .

(٣) انظر : تفسير الخازن ٤٨٠/٣، تفسير القرطبي ٦٢/٩، تفسير نظم الدرر للبقاعي ١٧٤/٤ .

الصاعقة صوتٌ مزعجٌ شديدٌ، ولشدة عظم الصيحة وهولها من فوقهم رجفت بهم الأرض من تحتهم، أي تحركت قويةً فاجتمع فيها أنها صيحة، وصاعقة ورجفة، ودمدمة، وكون ذلك تدميرٌ واضح .(١)

ولعل تعنت هؤلاء وسؤالهم للآيات التي متى أوتوها لم يمتنع عنهم العذاب كان هو السبب وراء استشهاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بهم لتعليل البعد عن سؤال الآيات، فعَنْ جَابِرٍ قَالَ : لَمَّا مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالْحِجْرِ قَالَ:" لَا تَسْأَلُوا الْآيَاتِ، وَقَدْ سَأَلَهَا قَوْمُ صَالِحٍ ؛ فَكَانَتْ تَرِدُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، وَتَصْدُرُ مِنْ هَذَا الْفَجِّ، فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَعَقَرُوهَا، فَكَانَتْ تَشْرَبُ مَاءَهُمْ يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ لَبَنَهَا يَوْمًا، فَعَقَرُوهَا ؛ فَأَخَذَتْهُمْ صَيْحَةٌ أَهْمَدَ اللَّهُ – عَزَّ وَجَلَّ – مَنْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ مِنْهُمْ، إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا كَانَ فِي حَرَمِ اللَّهِ – عَزَّ وَجَلَّ، قِيلَ : مَنْ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ :" هُوَ أَبُو رِغَالٍ ؛ فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ الْحَرَمِ أَصَابَهُ مَا أَصَابَ قَوْمَهُ "(٢) .

---

(١) انظر : أضواء البيان ١١٨/٧،تفسير حقي ١٩٦/٤، تفسير السعدي ٤٣٤/١، تفسير الجزائري المعروف بأيسر التفاسير ٤٧٩/١، ٣٠/٣ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد، وابن حبان، والحاكم، وذكره الهيثمي .

- أخرجه أحمد في مسنده / مسند: المكثرين / من حديث جابر بن عبد الله / رقم ١٣٦٤٤ .
- وأخرجه ابن حبان في صحيحه ٤٣٥/٢٥، باب: السبب الذي لأجله هلكت ثمود، حديث رقم ٦١٩٧ ، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٣٥١/٢ رقم ٣٢٤٨، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي : صحيح على شرط البخاري ومسلم ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٤٠٦/٦ رقم ١١٠٧٨، وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

- وقوله تعالى: " عَلَيْهِمْ " دليل أن العذاب جاءهم من أعلاهم كما سبق بيانه.

- وفي قوله :" رَبُّهُمْ" أي مربيهم، وأنهم مربوبون له بالنعم التي امتن عليهم كثيراً بها، فالآيات يفهم منها أوجه متعددة من النعم عليهم منها أن هؤلاء كانوا يعمرون السنين الطوال، وكانوا من عظمة أجسادهم وطول أعمارهم ما جعلهم يقيمون حضارة عظيمة في سهول وديانهم، وينحتون بيوتهم في الصخور بقلب الجبال حتى لا تخلعها الرياح ولا تأكلها عوامل التعرية وكر الدهور عليها، وفي معرض حديث صالح معهم ذكرهم بكل تلك النعم التي امتن الله عليهم بها : [وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ]هود ٧٤، وقوله بياناً للنعم العديدة عليهم: [أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ]الشعراء ١٤٦ : ١٥٢

- وقوله : " بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا" الباء للسببية أي بسبب ذنبهم دمدم الله عليهم فسواها، وإضافة الذنب لهم جميعاً هو لبيان إشتراكهم في الفعل، وإن لم يباشروه جميعاً بل باشره بعضهم كما سبق توضيحه ؛ بياناً أنهم وإن لم يباشروا الفعل فإنهم باشروا الرأي والتواصي بالجريمة، أو السكوت عن فعلها من المجرمين الذين باشروها،فكانوا جميعاً على حال من ثلاثة كلها تعد من الذنوب المشتركة في تلك الجريمة :
- قوم باشروا جريمة منع الناقة شربها، وتمادوا في غيهم فباشروا عقرها.

- قوم كانوا يحرضون المردة منهم ليتجرأوا على فعلتهم، وهم المعنيون بقوله تعالى : [وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ] النمل ٤٨: ٥٢
- قوم رأوهم مقبلين على تنفيذ جريمتهم وهم يعلمون فعلهم وعزمهم، وسكتوا ولم ينكروا، وهؤلاء شبيهون بأصحاب السبت الذين قالوا: [لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا] الأعراف ١٦٤ وهؤلاء حتى لم ينكروا بقلوبهم بل ركنوا إلى القوم المجرمين فهم – أيضاً – في عداد الفاعلين الأساسيين للذنب في ميزان المنهج الإلهي.
- وقوله تعالى : فسواها من المفسرين من ذهب لجعلها بمعني دمدم الله عليهم وسوى الأرض بهم، فجعل عود الضمير على الأرض، أي سواهم بالأرض وسوى الأرض عليهم ([1]).
- ومنهم من جعل فسواها : أي جعلهم مستوين في الحكم أمام عذاب الله – تعالى، فلم يتخلف العذاب عن أحد من أهل الباطل ([2]) .
- ولقد كانت قسمة المجتمع الثمودي أمام دعوة الله التي أرسل بها صالح عليه السلام قسمين :
- صالح ومن معه من المؤمنين المستضعفين وهؤلاء بنص القرآن قد نجوا ؛ لقوله تعالى :[فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا

١ ـ تفسير الرازي ١٨٠/٣١، البحر المحيط ٤٩٠/١٠

٢ ـ تفسير الطبري ٤٥٠/٢٤ ، القرطبي ٧٩/٢٠

وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ] هود ٦٦، وقال : [وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ] النمل ٥٣ .

- والقسم الآخر هم الكافرون والمعاندون والمرتكبون للمخالفة الكبرى للرسالة وصاحبها، وهؤلاء جميعاً بنص القرآن قد دمدم الله عليهم بذنبهم فأبادهم في صورة بشعة رسمها القرآن الكريم لهلاكهم ؛ قال تعالى: [وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ] النمل ٤٥: ٤٧،ثم قال بياناً لمصير هؤلاء:[فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا]النمل ٥١، ٥٢، والوجه الأليق في التوجيه هو جعل لفظ فسواها على التفسير الثاني يعني سواهم جميعاً أمام العذاب، لأنه لو سوى الأرض عليهم ما أبقى لديارهم أثراً، وقد ثبت من غير وجهٍ مرور النبي وصحابته بديار ثمود باقيةً دالةً على ما أحدثه الله تعالى – فيهم من نقمة، ولو استوت الأرض عليهم وبهم ما أبقى الله –تعالى– لديارهم أثراً وهو القادر، قال – تعالى:[وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ] هود ٦٧، ثبت أن النبي مر بديارهم قَالَ سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: إِنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، قَالَ: مَرَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى الْحِجْرِ، فَقَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَدْخُلُوا

مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ حَذَرًا، أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ» (١) .

قوله تعالى : [وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا] والشمس ١٤ أي فعل الله – تعالى – بهم ما فعل ولم يخف عاقبة ما صنعه بهم ؛ لأنهم أحقر من أن يخشى جانبهم لدى مخلوق فضلاً عن الخالق – تبارك وتعالى؛ تحقيراً لحالهم ومآل أمرهم .

- وقد جاءت هذه الخاتمة تذييلاً للقصة، وإيذاناً بختامها، وبياناً أن الله قد استأصلهم عن بكرة أبيهم فلم يبق منهم أحداً يخشى منه تبعة أخذه بالثأر لهم، فبين هذا التذييل أنهم عُذبوا عذاب استئصال .
- كما أن المراد من هذه الخاتمة هو إلقاء ظلال الرهبة في قلوب السامعين جميعاً والإيحاء بالقوة الكبرى التي لا يعارض فعلها، والبطش الإلهي الشديد الذي يطال المعرضين عن هديه والمكذبين لرسوله – صلى الله عليه وسلم– ففيه التعريض بموقف المعاندين من المشركين أنهم إن نزلت بهم نقمته فلن يقوم لها أحدٌ قط !
- وقد اختلف العلماء في عود ضمير الفاعل في الآية في قوله :" وَلَا يَخَافُ " كما يلي :
- ذهب الجمهور من المفسرين إلى عود الضمير إلى الله – تعالى (٢)، نقل ذلك عن ابن عباس والحسن وغيره، أي فعل الله – تعالى – بهم ما

---

١ - حديث صحيح رواه مسلم ٢٢٨٦/٤ في بَابُ لَا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ رقم : ٢٩٨٠

٢ -انظر/ تفسير الطبري ٢٤/ ٤٥١، تفسير القرطبي ٨٠/٢٠، تفسير ابن كثير ٨/ ٤٠٢

فعل من عذاب الاستئصال بذنوبهم جزاءً وفاقاً لما فعلوه، ومن فعل أمراً بحق وحكمة لم يخف عاقبته، وهو سبحانه الملك الحكم العدل:[لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ] الأنبياء ٢٣ .

- ذهب بعض المفسرين إلى القول بعود الضمير على نبي الله صالح ([1])،أي :[فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا]والشمس ١٣ وهو لا يخاف عاقبة تحذيرهم، وهو يدل على ركون وثقة نبي الله في ربه وأنه لا محالة ناصره وإن تكالب أهل الباطل عليه.
- ذهب الضحاك والسدي وغيرهم إلى عود الضمير على أشقاها أي على عاقر الناقة، أي أنه فعل ما فعل من جريمته وهي عقر الناقة وهو لا يخاف عاقبة فعله لا على نفسه ولا على قومه، وهذا التصريف كناية عن الجهالة والحماقة التي تلبس بها عاقر الناقر، فحق أن ينال لقب أشقى الأولين.
- والوجه الأقوى في ذلك هو ما ذهب إليه الجمهور، وهو عود الضمير على الله – تعالى – للاعتبارات التالية :
- ترتيب الضمائر في الأفعال السابقة على هذا الفعل أتت كلها مسندة لله – تعالى– أو عائدة عليه – تعالى: (فدمدم – ربهم – فسواها)، فلا يجوز صرف الضمير عن غير ذلك إلا بقرينة، ولا توجد قرينة لذلك فجاء على الأصل .
- في إعادة الضمير على أشقاها بعدٌ بين الفعل وضميره والعائد عليه، فعوده على أقرب مذكور وهو الله أولى.

---

١ -انظر/ البحر المحيط ٤٩٠/١٠، تفسير الرازي ٣١ /١٨٠، تفسير الماتريدي ١٠/ ٥٤٧

- **قوله تعالى : " ولا يخاف " جملة حالية وعود الضمير فيها على أشقاها فيه بعد بين الحال وصاحبها .**

إذا أطلق هذا المثل : [وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا] والشمس ١٤ فإنه ينصرف بإطلاق إلى من [لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ]الأنبياء ٢٣ وهو الله – تبارك وتعالى .

وفي هذ الآية نكتة لطيفة وهي عود آخر السورة على أولها بالقسم وجوابه المحذوف، ومن له هذ الأفعال الهائلة من بدء السورة إلى منتهاها، والتي سوى بين خلقه فيها، وهذا التدبير المحكم بحيث لا يعجزه شيء، ولا يخشى شيئاً، فكان خاتمة السورة متناسباً مع أنه – سبحانه – لا يخشى عاقبة فعله فيهم ([١]).

والحمد لله رب العالمين

١ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٨٤/٢٢

الدروس المستفادة من السورة الكريمة :

١- لهذه السورة أهمية خاصة في بناء تصورات المسلم تجاه نفسه، وتجاه الكون والحياة، وتجاه خالقه – عز وجل- فعلى المسلم أن يتملاها، ويتدبر معانيها تقويماً لأفكاره وتصوراته، ولذا كان النبي يحرص على قراءتها كل ليلة في العشاء الآخرة، وأوصى بها معاذاً في صلاته .

٢- ورد القسم في الآيات الكريمة بهذه الأنواع المتعددة من المخلوقات في ثنايا الكون حثاً على التدبر والتفكر في الكون من حولنا ؛ فهو طريق الإيمان اليقيني، وهي طريقة من طرائق القرآن في بناء الإيمان بالنظر في صفحات الكون الفسيح .

٣- من النوافل الهامة في حياة المسلم أداء ركعات الضحى، وهي سنة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم ؛ ففي الصحيح عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى" ([١]) .

٤- النفس البشرية لديها الاستعداد الفطري للتزكية وللتدسية، فعلى الكيس أن يأخذها بالطاعة وإلا انفلت منه عقالها ناحية المعصية فلم يستطع لها قياداً .

٥- تزكية النفس طريق الفلاح ؛ لذا وجب على المؤمن أن يأخذ نفسه بأوكد أسباب التزكية المتنوعة، وقد اعتمدت السورة على منهجيات قرآنية لتزكية النفس وهما :

---

١ - صحيح مسلم ٤٩٨/١ باب فضل صلاة الصبح حديث رقم ٧٢٠

- التفكر في ملكوت السماوات والأرض، والتأمل في النفس البشرية التي تعد عالماً متمايزاً في ذاتها .

منهجية الاعتبار بمصائر السابقين، وقد اتضح في السورة ذكر مآل وعاقبة ثمود لما كذبوا الرسل ؛ ذلك أن هذه المنهجية تمثل سوط الله تعالى لإيقاظ نفوس الغافلين .

اعتبار العلاقة المطردة بين العمل والجزاء ؛ فمن عمل الصالح جوزي به، ومن ارتكب المخالفة أخذ بها : [فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا] الشمس ١٤

٦- الآيات الكريمة أبانت أثر وشؤم الذنب على صاحبه، وأن الذنب يهلك فاعله، فقد أبان الله –تعالى – أنه أهلك ثمود بذنبهم ؛ لذا على المسلم أن يحرص على إرضاء الله –تعالى– ومجانبة الذنوب فإنها ماحقة لأصحابها، وفي الحديث الحسن عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلَّا الْبِرُّ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ» ([1]) .

٧- على المسلم أن يكون وقافاً عند حدود الله تعالى ينكر المنكر متى رآه إعمالاً لفريضة قرآنية وهي التناهي عن المنكر، وإلا عرض المسلم نفسه لنزول العقاب عليه مع الفاعلين إن لم يحجز فاعلي المنكر عن منكرهم، كما فعل الله – تعالى بثمود ؛ فإن عاقر الناقة لم تكن كل قبيلة ثمود، ولكن من لم يعقرها شارك في الذنب سكوتاً أو تشجيعاً، وقد أبان الله تعالى– في قرآنه عن لعنه جموع بني إسرائيل بهذا الذنب :" لُعِنَ الَّذِينَ

---

١ - مسند أحمد ٦٨/٣٧ حديث رقم ٢٢٣٨٦، المستدرك على الصحيحين ٦٧٠/١ حديث رقم ١٨١٤،

كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ " المائدة ٧٨، ٧٩ .

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

الخاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وبعد هذه السياحة في كتاب الله – تبارك وتعالى – في صحبة سورة قرآنية عظيمة من سوره الكريمة اتضح ما يلي :

١- القرآن الكريم هو كتاب الهداية الذي لفت أنظار المؤمنين منذ نزل لضرورة التفكر في ملكوت السماوات والأرض، وفي ثنايا النفس البشرية ؛ وصولاً للإيمان المؤسس على اليقين .

٢- خلق الله – تعالى– الكون كله وفق نظام دقيق محكم لا يتخلف نظامه أبداً مهما تطاولت السنون وتتابعت الدهور [وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ] يس ٣٨ : ٤٠ .

٣- النفس البشرية هي محط التكليف من الله – تعالى –، وهي مهيأة للخير والشر، والسعيد من زكاها والشقي من دساها [وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا] والشمس ٧ : ١٠ .

٤- الله – تبارك وتعالى – ألهم النفس الاستعداد للخير والشر، والإنسان هو الذي يختار طريق سيره الأبدي .

٥- من بذل الجهد لتزكية نفسه وتنمية التقوى فيها وفقه الله – تعالى – وفاز وأفلح، ومن ترك نفسه دون تطهير، وترك تقواه دون نماء استحق خذلان الله – تعالى له :[وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ] محمد ١٧ .

٦- الله – تبارك وتعالى – قد عامل البشر – جميعاً – برحمته في إرسال الرسل، وبيان الهداية، كما عاملهم بالعدل حين انحرفوا عن منهج الهداية ؛ فأخذهم بذنوبهم :[أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ] غافر ٢١، ٢٢ .

٧- شؤم المعاصي لا يتوقف عند فاعله بل يشمل من شاهده ولم يسع لتغييره ؛ ولذا فنظرية الإسلام الاجتماعية في ذلك هي :[وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ]آل عمران ١٠٤

وبعد فهذا ما من الله تعالى به حول تفسير سورة [والشمس]، وأسال الله تعالى أن يجعله شاهداً لي يوم العرض عليه،والحمد لله أولاً وآخراً

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قائمة المراجع التي تم الاستعانة بها في البحث

١- القرآن الكريم
٢- الاشتقاق أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ) تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون الناشر: دار الجيل، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م .
٣- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، دار الفكر - بيروت .
٤- الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، ط عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، طبعة الأولى، /٢٠٠٣م .
٥- الإتقان في علوم القرآن عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) بتحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر:الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م
٦- البحر المحيط في التفسير أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ) المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، طبعة: ١٤٢٠ هـ
٧- البحر المديد ٩٣/٢ أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي المتوفى: ١٢٢٤هـ
٨- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط أولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه .

٩- التبيان في تفسير غريب القرآن المؤلف: أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي، أبو العباس، شهاب الدين، ابن الهائم (المتوفى: ٨١٥هـ) المحقق: د ضاحي عبد الباقي محمد الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت .

١٠- التحرير والتنوير : تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» ٢٢ / ٢٧١، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، ط الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ .

١١- الثمر المجتنى مختصر شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسُّنَّة ص ١٧ المؤلف: د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني نشر: مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض .

١٢- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ .

١٣- الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م .

١٤- الدر المنثورفي التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) الناشر: دار الفكر – بيروت .

١٥- السلسلة الصحيحة أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري، ط مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض .

١٦- السيرة النبوية لابن هشام ط شركة الطباعة الفنية المتحدة بتحقيق د طه عبد الرؤوف سعد .

١٧- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ط دار الكتب العلمية – بيروت ط أولى ١٤٠٥ هـ .

١٨- القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

١٩- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ) المحقق: كمال يوسف الحوت الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩،

٢٠- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي ط دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٢١- اللباب في علوم الكتاب أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي، ط دار الكتب العلمية - بيروت/لبنان، ط أولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م .

٢٢- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله- صلى الله عليه وسلم- مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري،

(المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٢٣- المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية بالقاهرة بتحقيق(إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات / حامد عبد القادر /محمد النجار) ط دار الدعوة.

٢٤- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف لنووي (المتوفى: ٦٧٦هـ) ط دار إحياء التراث العربي – بيروت ط ٢ ١٣٩٢ هـ، عمدة القاري شرح صحيح البخاري ٨٨/١٦ ط دار إحياء التراث العربي – بيروت

٢٥- الموسوعة القرآنية المتخصصة المؤلف: مجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر ، عام النشر: ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

٢٦- النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ) المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان .

٢٧- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)تحقيق: صفوان عدنان داوودي دار النشر: دار القلم ، الدار الشامية - دمشق، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ .

٢٨- أساس البلاغة، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

٢٩- أسباب نزول القرآن المؤلف: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ) بتحقق: عصام

بن عبد المحسن الحميدان، الناشر: دار الإصلاح – الدمام الطبعة: الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

٣٠- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ،

٣١- بدائع الفوائد للإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) ، ط دار الكتاب العربي بيروت لبنان .

٣٢- بصائر ذوي التميي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) المحقق: محمد علي النجار الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة .

٣٣- تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني ط دار الهداية .

٣٤- تفسير البيضاوي،أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ) المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ .

٣٥- تفسير الشعراوي – الخواطر المؤلف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ) الناشر: مطابع أخبار اليوم .

٣٦- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني

الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ) ط الهيئة العامة المصرية للكتاب ط ١٩٩٠ م .

٣٧- تفسير القرآن العظيم (ابن كثير)، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)،المحقق: محمد حسين شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٩ هـ .

٣٨- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة) المؤلف: محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي (المتوفى: ٣٣٣هـ) المحقق: د. مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م،.

٣٩- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، تأليف عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)،نشر وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية ط الأولى، ١٤٢٢هـ .

٤٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) ط دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .

٤١- جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري / دار الفكر ١٩٨٨ بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم و عبد المجيد قطامش.

٤٢- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي أبو الفضل، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت .

٤٣- زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)،المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ ٢٦٢/٧ .

٤٤- شأن الدعاء، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ) بتحقيق أحمد يوسف الدّقاق، الناشر: دار الثقافة العربية الطبعة: الثالثة، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م .

٤٥- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد،أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – لهند،الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م .

٤٦- غرائب القرآن ورغائب الفرقان،المؤلف: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: ٨٥٠هـ)،المحقق: الشيخ زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٦ هـ .

٤٧- في ظلال القرآن،سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ) ط دار الشروق، بيروت – لبنان ط لسابعة عشر – ١٤١٢ هـ .

٤٨- لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى: ٧٤١هـ)،

المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ .

٤٩- لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، ط دار صادر – بيروت .

٥٠- مباحث في علوم القرآن، للشيخ مناع القطان، ط مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ٢٠٠٠م .

٥١- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) ط دار الكتاب العربي بيروت ط الثالثة ١٩٩٦ م .

٥٢- مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، الشيخ عدنان محمد زرزور ط دار القلم / بيروت ١٩٩٨ .

٥٣- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ موعلق عليه شعيب الأرنؤوط : صحيح وهذا إسناد حسن .

٥٤- معالم التنزيل في تفسير القرآن محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ) المحقق: حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .

٥٥- معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) المحقق: الشيخ

بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم» الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٥٦- معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم ط مكتبة الآداب القاهرة ٢٠٠٤ م بتحقيق أ.د محمد إبراهيم عبادة

٥٧- مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي،، ط دار الكتب العلمية – بيروت – ط أولى ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م

٥٨- مفردات ألفاظ القرآن الكريم الحسين بن محمد بن المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني أبو القاسم نسخة محققة ط دار القلم دمشق.

٥٩- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن / ط مؤسسة الرسالة – لبنان / بيروت –ط أولى ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤ م بتحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي

٦٠- انظر/ البيان في عدّ آي القرآن ٢٧٥/١، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ) المحقق: غانم قدوري الحمد، الناشر: مركز المخطوطات والتراث – الكويت الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ– ١٩٩٤م، الفرائد الحسان في عد آى القرآن ٧٣/١، عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد القاضي (المتوفى: ١٤٠٣هـ) الناشر: مكتبة الدار بالمدينة المنورة، الطبعة: الأولى ١٤٠٤ هـ

٦١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٩/١، المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الإتقان في علوم القرآن ٣٧٦/٣، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م،

٦٢- سنن الترمذي المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق:أحمد محمد شاكر، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

٦٣- المعجم الكبير المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية

٦٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هبحر العلوم ٣/٥٨٥، أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ)،

٦٥- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم لمعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ)، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق، وانظر المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز

٦٦- البحر المحيط في التفسير المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ

٦٧- طرح التثريب في شرح التقريب (المقصود بالتقريب: تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد) المؤلف: أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين

بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (المتوفى: ٨٠٦هـ)، أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي (المتوفى: ٨٢٦هـ)، الناشر: الطبعة المصرية القديمة – وصورتها دور عدة منها (دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي)

٦٨- مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي ٩/٢٦٥، أحمد قبش بن محمد نجيب

٦٩- أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل المؤلف: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ) تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى الناشر: دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية – الرياض الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١ م

٧٠- السنة، المؤلف: أبو بكر بن أبي عاصم وهو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني (المتوفى: ٢٨٧هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠ .

٧١- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م .

٧٢- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، المؤلف: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ)، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة عام النشر: ١٢٨٥ هـ .

٧٣- التبيان في أقسام القرآن ، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان .

٧٤- فتح رب البرية في شرح نظم الآجرومية (نظم الآجرومية لمحمد بن أبَّ القلاوي الشنقيطي)، المؤلف (مؤلف الشرح): أحمد بن عمر بن مساعد الحازمي، الناشر: مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

٧٥- المفصل في صنعة الإعراب، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) ، المحقق: د. علي بو ملحم، الناشر: مكتبة الهلال – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٣ .

٧٦- اللمع في العربية ، المؤلف: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، المحقق: فائز فارس، الناشر: دار الكتب الثقافية – الكويت .

٧٧- الكتاب، المؤلف: عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية

الفهرس العام

المقدمة
الفصل الأول : التمهيد
اسم السورة
أياتها
نزولها ومناسبتها
علاقتها بالسور قبلها وبعدها
المقاصد العامة للسورة
فضلها
القراءات القرآنية الواردة في السورة
الفصل الثاني : التفسير التحليلي
تفسير قوله – تعالى :[وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا]
تفسير قوله – تعالى :[وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا]
تفسير قوله – تعالى :[وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا]
تفسير قوله – تعالى :[وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا]
تفسير قوله – تعالى :[وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا]
تفسير قوله – تعالى :[وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا]
تفسير قوله – تعالى :[وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا]
تفسير قوله – تعالى :[فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا]
تفسير قوله – تعالى :[قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا]
أهم القضايا الواردة في ثنايا المقطع الول
حكم القسم الإلهي بالمخلوقات

معنى الواوات الواردة في السورة
بيان نوع ما الواردة في السورة
قضية الإلهام بالفجور والتقوى
المقطع الثاني : [نموذج واقعي للخيبة]
تفسير قوله – تعالى :[كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا]
تفسير قوله – تعالى :[إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا]
تفسير قوله – تعالى :[فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا]
تفسير قوله – تعالى :[فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا]
تفسير قوله – تعالى :[وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا]
الدروس المستفادة من السورة
خاتمة البحث
قائمة المراجع

مجلة
كلية
الدراسات
الإسلامية